الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر
عصر سلاطين المماليك

تأليف
دكتور حامد زيان غانم
كلية الآداب - جامعة القاهرة

التوزيع
المكتبة العالمية
١٦ شارع الفجالة - القاهرة
ت ٩١١٣٧١

الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر
عصر سلاطين المماليك

تأليف

دكتور حامد زيان غانم

كلية الآداب - جامعة القاهرة

التوزيع

المكتبة العالمية

١٦ شارع الفجالة - القاهرة

ت ٩١١٣٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم الاستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
أستاذ تاريخ العصور الوسطى - بجامعة القاهرة

مازال عصر سلاطين المماليك فى مصر والشام يحتل مكان الصدارة من اهتمام الباحثين فى حقل تاريخ الشرق الادنى فى العصور الوسطى ·

واذا كان النشاط السياسى والحربى فى ذلك العصر قد ظفر حتى الآن بقسط وافر من الدراسة ، فان الجوانب الاقتصادية والاجتماعية لا تزال تفتقر الى مزيد من الجهود والبحوث · ومن الظواهر ذات الآثار الاجتماعية التى اتسم بها تاريخ مصر فى العصور الوسطى بوجه عام ، وفى عصر سلاطين المماليك بوجه خاص ، ظاهرة تعرض البلاد لأزمات اقتصادية خانقة بين حلقة وأخرى من حلقات تاريخ ذلك العصر · والغريب فى أمر هذه الأزمات أنها كانت لا تقتصر على اقليم دون آخر من أقاليم البلاد ، وانما كانت تعم كافة الاقاليم وتتأثر بها كل البلاد والعباد ، ثم لا تلبث أن تترك بصماتها واضحة فى أحوال المجتمع وأوضاعه مما يجعل منها سمة خطيرة من سمات العصر ، جديرة فعلا بالدراسة والبحث ·

وانه من دواعى الارتياح أن يقوم أحد الباحثين المشتغلين بدراسة التاريخ على العناية بتتبع ظاهرة الازمات الاقتصادية وما كان يلازمها غالبا من أوبئة تعرضت لها مصر فى عصر سلاطين المماليك ·

والدكتور حامد زيان مدرس تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة القاهرة من الشخصيات المثـ
حقل العلم ، وهو عندما تصدى لعلاج هذا الموضوع
انما أقدم على عمل تجمعت له كل أدواته وأهم مصـ
مما جعل دراسته تجمع بين العمق والجدية .

واننى لأرجو أن يجد القارىء فى هذا البحث
وأن يوفق الدكتور حامد زيان لمزيد من الجهد المثمر
فى حقل تخصصه .

والله ولى التوفيق ؟

ضاحية المعادى
٩ رمضان ١٣٩٦ هـ .

سعيد عبد الفتاح عاشور
٣ سبتمبر ١٩٧٦ م .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تدل كافة الشواهد التاريخية على أن عصر سلاطين المماليك (٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م) شهد فى مصر نشاطا اقتصاديا واسع النطاق ، صاحبه ازدهار حضارى ملحوظ وتقدم علمى خاصة فى مجال الطب وصناعته ٠ ويعود هذا النشاط الاقتصادى أساسا الى انتعاش الطريق الذى أتاح لمصر فرصة القيام بدور الوسيط التجارى فى التجارة العالمية خاصة بعد أن اضمحل الطريق البرى الموصل بين الشرق الاقصى من جهة وآسيا الصغرى وموانى البحر الاسود من جهة أخرى ، بعد استيلاء المغول على بغداد عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م ، وسيطرتهم على ذلك الطريق وتهديدهم لأمن التجارة فيه ، مما جعل التجار يخشون على أرواحهم وأموالهم ، فآثروا اتخاذ الطرق البحرية وهى طريقان : أحدهما طريق الخليج والآخر طريق البحر الاحمر ـ مصر ٠ ولما كان طريق الخليج ينتهى عند البصرة لتنقل البضائع منها واليها مارة ببغداد ، فان هذا الطريق وقع هو الاخر تحت سيطرة التتار بسقوط العراق وبغداد فى قبضتهم ، وبذلك لم يتبق سوى طريق البحر الاحمر ومصر بعيدا عن نفوذ الأخطبوط التترى الذى امتدت مخالبه من أطراف العراق جنوبا حتى سهول روسيا وبولندا شمالا ٠

وبنشاط تجارة البحر الاحمر نشطت الحركة التجارية داخل مصر ذاتها ، وحصل سلاطين المماليك فى مصر على أموال طائلة من اشرافهم على ذلك الشريان الهام فى

التجارة العالمية بين الشرق والغرب (١) ٠

ولا شك فى أن تدفق الاموال على البـــلاد نتيجة انتعاش التجارة صحبه ازدهار هام ســـواء فى بقية النشـــاط الاقتصادى كالزراعة والصـــناعة (٢) ، أو فى النشـــاط الفكرى والعلمى سواء فى التأليف أو فى بعض العـــلوم التى جمعت بين المهارة فى فن الصناعة والدقة فى تطبيق العلم على العمل ، ومن أبرزها علم الطب (٣) ٠

على أن هذا النشاط المتعدد الجوانب لم يحل دون حدوث عدد من الازمات الاقتصادية التى تعرضت لهـــا البلاد فى ذلك العصر ، صاحبها حدوث كثير من المجاعات والاوبئـــة مما يسترعى انتباه الباحث ٠

ونظرا لخطورة تلك الازمـــات الاقتصـــادية والمجاعات والاوبئـــة والطـــواعين وأثرها فى الجـــوانب الاقتصـــادية والاجتماعية فى مصر العصـــور الوسطى ، عنى كثير من مؤرخى تلك العصور بالتعرض لهذا الجانب بالكتابة ، فلم يغفـــل كثير من المؤرخين المعاصرين عن ذكر أمر النيـــل ومقياسه ومبلغ زيادته أو نقصانه فى كل سنة وذلك للتعرف

---

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشـــام ص ٢٨٤ ـ ٢٩٦ ٠

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى فى صـــناعة الانشا جـ ٣ ص ٤٤٦ ـ ٤٤٨ ،

زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٤٢٠ ـ ٤٦٢ ٠

(٣) ابن أبى اصيبعة : عيون الانباء فى صبقات الاطبـاء جـ ٢ ص ٨٢ ـ ١٣٣ ٠

على مدى الرخاء أو القحط الذى سيحل بالديار المصرية(١)، هذا فى حين تعرض فريق من المؤرخين لبحث ظاهرة الأوبئة، فمنهم من كتب رسائل محددة فى مرض أو وباء معين ، كما فعل ابن الورى فى رسالته المسماة « والنبا عن الوبا » (٢)، وكان معاصرا للوباء الاسود عام ٧٤٩هـ / ١٣٤٨ م وتوفى أثناؤه ، ومنهم من جمع فى كتيب صغير كافة المجاعات والاوبئة التى حلت بمصر ، كما فعل المقريزى فى كتابه « اغاثة الامة بكشف الغمة » (٣) ، ومنهم من عمد الى كتابة تاريخ عام للطاعون وقدم فيه حلول لتخفيف حدته وتقليل انتشاره مثلما فعل ابن حجر العسقلانى فى كتابه « بذل الماعون فى فضل الطاعون » (٤) ، ومنهم من قام بتلخيص بعض الكتب أو الرسائل وأضاف اليها وذيلها ، مثلما فعل

---

(١) نذكر من أولئك المؤرخين على سبيل المثال لا الحصر:

١ ـ ابن ايبك الدوادارى : موسوعته كنز الدر وجامع الغرر ٠

٢ ـ المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ٠

٣ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ٠

٤ ـ ابن داود الصيرفى : نزهة النفوس والابدان فى تواريخ الزمان ٠

٥ ـ ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ٠

(٢) نشرت هذه الرسالة ضمن كتاب : مقامات ورسائل ابن الوردى ٠ طبع القسطنطينة ٠

(٣) قام بنشر هذا الكتاب كلا من الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور جمال الشيال ٠

(٤) مخطوط بدار الكتب ٠

زكريا الانصارى فى رسالته المسماه « تحفة الراغبين فى بيان أمر الطواعين » (١) ٠

وثمة ملاحظان هامتان يجب الاشارة اليهما وهما : أولا :

أن انتشار الاوبئة بمصر فى العصور الوسطى لا يعنى أن مصر كانت خالية من الاطباء والحكماء الذين يقع على كاهلهم عبء مكافحة هذه الأمراض ، فالحقيقة هى أن مصر اكتظت بالاطباء العارفين بأمر الاوبئة والطواعين والذين قاموا بدورهم على أكمل وجه فى علاج كثيرين ممن أصابهم هذا المرض ٠

وثانيا : اننا اذا كنا فى بحثنا هذا سنتناول بالتفصيل الحديث عن الازمات الاقتصادية والاوبئة التى حلت بالديار المصرية فى عصر سلاطين المماليك ، فلا يعنى هذا أن ذلك العصر وحده هو الذى شهد تلك الويلات ، ولكن الحقيقة هى أن مصر شهدت قبل حكم سلاطين المماليك وبعد انتهاء هذا الحكم عددا كبيرا من الازمات الاقتصادية والمجاعات والاوبئة ، وبالنسبة لما سبق عصر المماليك سنلقى عليه نظرة سريعة كمقدمة لموضوع بحثنا الاساسى ، أما ما حدث بعد عصر المماليك فتكفى الاشارة الى تلك الكتب والرسائل التى سردت ظاهرة قلة المطر أحيانا وما أصاب مصر من قحط ومجاعات وأوبئة وطواعين ابان الحكم العثمانى فى مصر (٢) ٠

---

(١) مخطوط بدار الكتب المصرية ٠

(٢) من بين تلك الرسائل والكتب نذكر :

١ ـ رسالة عن : ما يفعله الاطباء والداعون لرفع شر الطاعون تم تأليفها عام ١٠٣١ هـ (مخطوط بدار الكتب المصرية) ٠

(٢) رسالة عن : الدعاء المسمى « رفع الضرر باستسقاء المطر » كتبت عام ١٢٩٣م (مخطوط بدار الكتب المصرية) ٠

الفصل الأول

أسباب الأزمات الاقتصادية والاوبئة

قبل أن نتتبع تلك الازمات الاقتصادية والمجاعات والاوبئة فى ذلك العصر ، يصح أن نقف وقفة قصيرة نعلل فيها أسباب هذه الظواهر الخطيرة التى لم تتفرد بها مصر وحدها ، وانما عرفها العالم أجمع ، مشرقه ومغربه ، فى العصور الوسطى ٠

ويأتى فى مقدة تلك الأسباب ، الأسباب الطبيعية ومنها انخفاض منسوب نهر النيل أو زيادته زيادة مفرطة ، والمعروف أن نهر النيل لعب دورا خطيرا فى حياة أهل مصر ، ليس فقط فى العصر المملوكى أو العصور الوسطى ، بل أيضا فى مختلف عصور مصر التاريخية القديمة منها والحديثة والمعاصرة ٠ واذا كنا نحن اليوم استطعنا التحكم فى مياه هذا النهر باقامة الخزانات والسدود ، فانه فى العصور الوسطى أو بالأحرى فى العصر المملوكى لم تكن تلك الانظمة موجودة ، واذا كان سلاطين المماليك اهتموا بنهر النيل اهتماما كبيرا من ذلك ما بذلوه فى عمارة الجسور وصيانتها وتعيين أحد الموظفين الكبار وهو « كاشف الجسور » ليقوم بالحفاظ على الجسور وعمارتها يساعده عدد لا بأس به من الملاحظين والمهندسين (١) ٠ الا أن هذه الجهود المبذولة لم تكن كافية دائما لصيانة جسور نهر النيل وتطهير قنواته (٢) ٠ فيشير القلقشندى وهو أحد

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جـ ١ ص ٩٨ ٠

(٢) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٦٢ - ١٦٣

كتاب القرن التاسع الهجرى الىأنه « فى زماننا علت الارض مما يرسب عليها من الطين المحول مع الماء فى كل سنة ، وضعفت الجسور » (١) ٠ وكذلك كان الحال فى القرن العاشر الهجرى ، فيشير ابن أياس وهو من مؤرخى القرن العاشر الى أنه حدث فى شهر رجب عام ٩١٩ هـ / ١٥١٣ م فيضان النيل « وتحطم جسر أم دينار » وأدى هذا الى اغراق بعض أراضى الجيزة ، مما أدى الى شراق الارض ٠

كذلك اهتم سلاطين المماليك بمقياس النيل ، وهو عبارة عن عمود رخام أبيض مثمن فى موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه اليه ، وهذا العمود مفصـــل على اثنين وعشرين ذراعا ، كل ذراع مفصل على أربعة وعشرين قسما متساوية تعرف بالأصابع ما عدا الاثنى عشر ذراعا الاولى ، فانها مفصلة على ثمان وعشرين اصبعا ٠ والمعروف أنه كان بمصر عدد كبير من مقاييس النيل ، أنشأها حكام مصر وولاتها ، منها : مقياس منف ومقياس أنصتا ومقياس أخميم ومقياس أسوان ومقياس دندرة ومقياس حلوان ومقياس الجزيرة(٢)

وقياس النيل هوالذى يحدد زيادة أو نقصان الماء ،ويقوم بالنظر فى المقياس شخص أطلق عليه « صاحب المقيـــاس » الذى يتتبع حال ماء النيل ويرصد زيادته فى كل يوم وقت العصر ويخبر بها أعيـــان الدولة وأرباب الوظائف الكبرى دون غيرهم (٢) ، حتى اذا أوفى النيل أى بلغت مقدارزيادته

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٣ ص ٢٩٦

(٢) المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ٩٢ ـ ٩٣ ،
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج ٢ ص ٣٠٩ ـ ٣١١ ٩٩٠

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٢٩٣ ـ ٢٩٥

الى ستةعشر ذراعا (١)،وهو المعبر عنه «بماءالسلطان»(٢) يعلن صاحب المقياس مبلغ الزيادة حينئذ على كافة الناس خاصتهم وعامتهم ويعتبر يوم وفاء النيل من الايام الجليلة، ففيه يتم كسر خليج القاهرة (٣) ، وتكتب البشارات بوفاء النيل الى سائر أقطار المملكة ، ويكون وفاؤه فى الغالب فى

---

(١) تواتر فى المراجع التاريخية أن وفاء النيل كان يعلن عنه اذا انتهت الزيادة الى ستة عشر ذراعا ، على الرغم من أن معظم الاراضى لا تصل اليها المياه الا اذا وصلت الزيادة الى سبعة عشر ذراعا ، ومما يجدر ذكره أن صيانة الجسور قلت مما أدى الى فساد الجسور ، بالاضافة الى ارتفـــاع الارض نتيجة ما يترسب عليها من الطين كل عام ، كل ذلك كان له أثر سيىء فى نظام النيل وكان فى الماضى اذا وصل الى ثمانية عشر ذراعا « استبحر من مصر الربع » . أما فى العصر المملوكى فكانت الزيادة عن ثمانية عشر ذراعا هى التى تشكل الخطر على المحصولات الزراعية .

أنظر : النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، جـ ١ ص ٢٦٣ ،

القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٣ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٦ ،

المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٩٧ ،

أبو المحاسن : النجوم ، جـ ١ ص ٣١٣ .

(٢) يطلق عليه هذا الاسم ، لأن الخراج سيتم تحصيله كاملا ، القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٣ ص ٢٩٦ .

(٣) لمعرفة المزيد عن كسر خليج القاهرة أنظر :

سعيد عاشور : المجتمـــع المصرى فى عصر ســـلاطين المماليك ص ١٩٧ ـ ٢٠٠ .

شهر مسرى من الشهور القبطية (١) . ويشير النويرى الى أنه « يحصل لأهل مصر اذا وفى النيل ستة عشر ذراعا فرح عظيم ، بحيث أن السلطان يركب فى خواص دولته وأكابر الامراء فى الحراريق (٢) ، الى المقياس ويمد فيه سماط يأكل عنه الخواص والعوام ويخلع على القياس ، ويصله بصلة مقررة له فى كل سنة » (٣) .

وكانت الحياة كلها بمصر تتوقف على وفاء النيل أى على بلوغ ماء الفيضان الحد اللازم لرى كافة الأراضى الزراعية فى البلاد والذى عليه يتحدد مصير الشعب المصرى ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كان لزيادة منسوب الفيضان عن ثمانية عشر ذراعا أضرار بالغة اذ يؤدى الى اغراق الاراضى الزراعية وما بها من محاصيل .

وعلى هذا النحو كان لانخفاض منسوب نهر النيل (٤) ، أثر كبير على الديار المصرية ، وما كان يتبعه من فساد الزراعة وحدوث القحط وقلة المراعى والكلأ ، مما يؤدى

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٣ ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠ ، المقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٧ .

(٢) نوع من السفن الحربية التى استخدمت لحمل الاسلحة النارية واستخدم منها نوع فى النيل أثناء الاستعراضات التى تقام فى الحفلات مثل الاحتفال بكسر الخليج .
أنظر : سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٤٠٨ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ص ٢٦٤ .

(٤) يشير النويرى الى أنه « متى قصر النيل عن هذا المقدار ـ أى ستة عشر ذراعا غلت الاسعار »
(نهاية الأرب : ج ١ ص ٢٦٤) .

الى ضعف المحصول وبالتالى الى اختفاء الغلال من الاسواق ، مما يتسبب فى انتشار المجاعة ، حيث لا يجد الناس ما يقتاتون به فيضطرون الى أكل أوراق الشجر والاخشاب والى التهام لحوم بعض الحيوانات الأليفة مثل القطط والكلاب وغيرها ، كما بالغ بعض المؤرخين فى ذكر ما كان يحدث أثناء بعض المجاعات وتحت ضغط الجوع من أكل اللحوم الآدمية ، خاصة لحوم الاطفال والنساء !!

أما العامل الثانى فى حدوث الأزمات الاقتصادية وهو من العوامل الطبيعية أيضا ، فهو ما كان يصيب المحاصيل الزراعية من آفات أو رياح عاصفة ، تعصف بالمزروعات والحاصلات وتنزل بهما أكبر الضرر ، مما كان يتبع ذلك من ضعف المحصول وقلة الغلال وعدمها ، وما يترتب عليها من حدوث الازمات الاقتصادية ٠

وهناك عامل ثالث أدى الى حدوث الازمات الاقتصادية وهو الناتج عن ارتفاع الاسعار خاصة أسعار الغلال ، وهو العامل الذى أشار اليه تقى الدين المقريزى بقوله « ان الناس دائما اذا توقف النيل فى أيام زيادته ، أو زاد قليلا ، يقلقون ويحدثون أنفسهم بعدم طلوع النيل ، فيقبضون أيديهم على الغلال ويمتنعون من بيعها رجاء ارتفاع السعر ، ويجتهد من عنده مال فى خزن الغلة اما لطلب السعر ، أو لطلب ادخار قوت عياله ، فيحدث بهذا الغلاء » (١) ٠ ومن النص السابق يتضح لنا أن الغلاء يحدث نتيجة احتكار بيع الغلال ، ولدينا أمثلة كثيرة لسنوات توقف فيها ماء النيل عن الزيادة أو زاد قليلا ، فارتفع سعر الغلال من ذلك على سبيل المثال ما حدث فى شهر أبيب / جمادى الآخرة عام ٧٨٩ هـ (١٣٨٧ م) عندما « توقف ماء البحر ـ النيل ـ عن الزيادة ، بل نقص ، فحصل عند الناس بذلك غاية الجزع الهلع وبادروا لمشترى

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٨ ٠

الغلة » (١) وما حدث فى شهر مسرى/رمضان عام ٧٩٣ هـ (١٣٩١م) عندما توقفت الزيادة أياما، فغلت الاسعار » (٢)

والواقع أننا صادفنا فى هذه الدراسة كثيرا من احتكارات الغلال التى حدثت اما بسبب رغبة التجار أو حائزى الغلال فى بيعها بسعر أعلى ، أو بتخزينها لدفع طائلة الجوع عن أنفسهم وأولادهم ، وفى كلتا الحالتين كان ينتج عن تخزين الغلال تكالب الناس على شرائها وعدم وجودها واختفائها من الأسواق ، مما يترتب عليه ارتفاع أسعارها وفق قانون العرض والطلب ، وبحدوث هذا الغلاء تحدث المجاعة بين عامة المجتمع المصرى الذين تنعدم لديهم القدرة الشرائية لتلك الغلال ذات الاثمان الباهظة ، ولم يكن الاحتكار مقصورا على التجار أو حائزى الغلال وحدهم ، وانما تعدى هؤلاء الى السلاطين أنفسهم ، فنجد مثلا أن السلطان الاشرف برسباى قام باحتكار الاتجار فى كثير من أنواع السلع التجارية ، مما أدى الى ارتفاع سعرها ارتفاعا كبيرا ٠

ويوجد سبب رابع لتلك الازمات الاقتصادية التى وقعت بمصر فى عصر سلاطين المماليك ، وهو يندرج تحت عنوان احتكار الغلال ، ولكن هذه المرة لا يرتبط بأمر النيل كما فى العامل السابق،وانما يختص بالناحية التجارية الاستغلالية المحضة ٠ وتفصيل ذلك أنه كان يحدث فى بعض الاوقات أن يتفق التجار على تخزين الغلال بكميات كبيرة ، حتى يقل وجودها بالاسواق مما يؤدى الى تكالب الناس على شرائها

---

(١) ابن داود الصيرفى : نزهة النفوس الأبدان ، جـ ١ ص ١٥٣ ٠

(٢) المصدر السابق : جـ ١ ص ٣٣٣ ٠

بأسعار مرتفعة يحددها أولئك التجار ، وفى بعض الاحيان كان أولئك التجار يتظاهرون بأنهم قادمون على تصدير مافى شونهم من غلال الى خارج مصر مما يؤدى الى ارتفاع الاسعار وزيادة التكالب على الشراء ٠

كذلك كان لزيف النقود أثر كبير فى حدوث الازمات الاقتصادية ، ذلك أن بعض السلاطين وخاصة فى العصر المملوكى الثانى ، أكثروا من ضرب الفلوس التى اختلفت أوزانها ، مما أدى الى اضطراب المعاملات والى اغلاق التجار لحوانيتهم خوفا من بخس بضائعهم، وما كان يصحب ذلك من ارتفاع فى السعر وقلة الغلال ٠

ويشير المقريزى الى أن المعاملة فى مصر كانت بالدراهم الفضة والدنانير الذهبية منذ بداية العصر الاسلامى وحتى عصر السلطان الكامل الايوبى الذى أمر بضرب الفلوس ، وصارت عملة متداولة جنبا الى جنب مع الدراهم والدنانير، حتى كان عصر السلطان الظاهر برقوق « الذى أكثر من ضرب الفلوس وأبطل ضرب الدراهم، فتزايدت حتى صارت عرضا ينادى عليه فى الاسواق بحراج حراج ، وغلبت الفلوس » ٠ ولم تلبث المعاملة بالفلوس أن راجت وصارت الدنانير والدراهم تقدر بوزنها فلوسا ، والفلوس هذه تصنع من معدن النحاس الاحمر ، وقد اختلفت أسعار الدراهم والدنانير بالفلوس باختلاف السلاطين وتعاقبهم ، وكثيرا ما كان السلطان الواحد يضرب أكثر من نوع من الفلوس ويختلف سعر كل منها عن سعر الآخر ، مما كان يتسبب فى حدوث اضطراب الاحوال الاقتصادية « وتوقف أحوال الناس » ، وفى رأى المقريزى أن الفلوس « لم يجعلها

الله تعالى قط نقدا فى قديم الدهـــر وحديثه وهى أشـبه شيء بلاشيء » (١) ٠

وبالاضافة الى ما سبق من عوامـل ، كان لاضـــطراب الاحوال السياسية بمصر فى عصر ســـلاطين المماليك دور كبير فى ارتفاع الاسعار وقلةالغلال وماينجم عنه من حدوث الازمات الاقتصادية ، والمعروف أن المماليك سلاطين كانوا أم أمراء أم جنودا ، كانت لا تجمعهم رابطة الدم ، بل كانت تحكمهم أنظمة خاصةبهم وتربطهم بعضهم ببعض روابط مثل الاســتاذية والخشـــداشية ، وكانوا يؤمنون بأن الحـــكم والسلطان دائما للأقوى ، كل هذا أدى الى كثير منالخلافات والصراعات بين مختلف فئاتهم ، لدرجة أنه لم تخل سنة من سنوات حكم بعض سلاطين المماليك الا وأحد الأمراء حدثته نفسه بالسلطنة وتآمر ضد الســـلطان وكثيرا ما قرأنا عن صراع نشب بين أميرين كبيرين أدى الى اضطراب الامور « وتوقف أحوال الناس » خاصة اذا كان السلطان طفـــلا صغيرا أو رجلا ضعيفا ٠ وبالاضافة الى هـذا تكررت فى أواخر العصر المملوكى ثورات المماليك الجلبان ـ الأجلاب ـ على أمرائهم ، مما زاد من حـدة الاضطرابات التى وقعت بمصر فى ذلك العصر ، وأدت كـل هـــذه الاضطرابات الى اغلاق الاسواق ، وما نتج عن ذلك من قلة الغلال وارتفاع الاسعار وحدوث المجاعات ٠

وأخيرا يأتى سوء الادارة والحكمبمصر فى عصر المماليك ليضـــيف سببا جـديدا لحـــدوث الأزمات الاقتصـــادية والمجاعات ،ويظهر ذلك بوضوح أواخـر العصر المملوكى ،

---

(١) المقريزى : النقود الاســـلامية ، ص ٦١ ـ ٧٦ ، اغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص ٦٧

ويشير المقريزى - وهو شاهد عيان لأحداث النصف الاول من القرن التاسع الهجرى - الى أن من أسباب حدوث المجاعات : « ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة كالوزاره والقضاء ونيابة الاقاليم وولاية الحسبة وسائر الاعمال ، بحيث لا يمكن التوصل الى شىء منها الا بالمال الجزيل » (١) . ويشير ابن تغرى برد ى الى أن أخذ البراطيل - أى الرشوة - قديم يرجع الى القرن الثالث الهجرى ، ولكنه تفشى وزاد خطره زمن المماليك خاصة أيام السلطان الصالح اسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون (٧٤٣ - ٧٤٦ هـ / ١٣٤٢ - ١٣٤٥ م) الذى أنشأ ديوان البذل - أى ديوان البراطيل - « وشاع ذلك فى الاقطار ، وصار من له حاجة يأتى الى صاحب الديوان المذكور ويبذل ما يرومه من الوظائف » (٢) .

وقد اتبع نفس هذا الاسلوب من أتى بعد الصالح اسماعيل من سلاطين ، فيشير ابن حجر العسقلانى الى أنه فى زمن السلطان الكامل شعبان (٧٤٦-٧٤٧هـ/ ١٣٤٥ - ١٣٤٦ م) « كان يأخذ على الاقطاعات والوظائف من كل أحد وأفرد لذلك ديوانا » (٣) .

---

(١) المقريزى : اغاثة الامة ص ٤٣

ويشير ابن اياس الى أن « هذه الأموال العظيمة التى يسعى بها هؤلاء انما يستخلصونها من أضلاع المسلمين ودمائهم » (بدائع الزهور ج ٣ ص ١٨) .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٢٩٢ .

(٣) ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة فى أعيان المئه الثامنة ج ١ ص ٤١٧ .

وبحدوث المجاعات تكثر الوفيات وتتواجد الجيف فى الطرقات مما يؤدى الى انتشار الأمراض والاوبئة ، ويرى ابن خلدون أن أهم أسباب انتشار الاوبئة « فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة (١)، واذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيوانى وملابسه دائما فيسرى الفساد الى مزاجه ، فاذا كان الفساد قويا وقع المرض فى الرئة وهذه هى الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة » (٢) ويشير المؤرخ المحدث أحمد بن حجر العسقلانى الى الطاعون فيقول : « الطاعون وزن فاعول ، من الطعن دالا على الموت العام كالوباء ، ويقال طعن فهو مطعون ، وطعين اذا أصابه الطاعون ... وهو قرحه يبلى الله بها من يشاء ، غالبا ما تخرج فى الأباط كذلك فى الأيدى والاصابع ... ويصاحبها ورم مؤلم جدا يخرج معه لهيب ويغير لون البدن الذى يحيط به ..

---

(١) يشير الادفوى أنه لما كانت أسوان معتدلة الهواء فهى لذلك « قليلة الوباء » .

(أنظر : الطالع السعيد ص ٣٣) .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٠١ ، ٣٠٢ .

ويؤكد هذا الرأى ما ذكره أبو الحسن على بن سهل من أنه وقع وباء زمن الحكيم أبقراط ، وعندما اقترب هذا الوباء من بلاد أبقراط ، أمر أهل البلاد بجمع الاشجار ذات الرائحة الطيبة وحرقوها ، فملأ دخانها الهواء « فاعتدل فساد الجو بتلك المدخن وسلموا من الوباء » .

(أنظر : فردوس الحكمة فى الطب ص ٣٣٠)

ويحدث معه خفقان القلب والقيء (١) « ويشير أحد أطباء العصور الوسطى الى أن الطاعون « صورته شيء مستدير ينزف الدم والصديد ٠٠ وشره ما فى الابط الشمال لمجاورته القلب ، فالفخذ الايمن ، فالابط الايمن ، فالفخذ الايسر ، فالعنق » (٢) ٠

ومن الجدير بالذكر أن الطاعون من الاوبئة العامة ولكن ليس كل وباء طاعون ، لأن الطاعون له صفات وخصائص تحدده وتخصصه ٠

وكما سبق أن أوضحنا فان الارتباط شديد بين انخفاض النيل من جهة وحدوث المجاعات من جهة ثانية وبين وقوع الاوبئة والطواعين من جهة ثالثة ٠ ولم يكن فى الامكان آنذاك التحكم فى مياه النيل مثل العصر الحاضر ، فكان من المحتم اذا انخفض النيل أن تحدث المجاعة وبالطبع يفسر الناس ذلك بسخط أنزله الله بهم ، فكان لزاما عليهم أن يرضوا الله سبحانه وتعالى وذلك باقامة صلاة الاستسقاء (٣) واراقة الخمور والاقلاع عن المنكرات ٠ وفى بعض الاحيان كان سلاطين الملوك وأمرائهم حينما يتفشى الطاعون فى

---

(١) ابن حجر العسقلانى : بذل الماعون فى فضل الطاعون الفصل الثانى (مخطوط) ٠

(٢) داود الانطاكى : تذكرة أولى الألباب ، ج ١ ص ١٣٦ ـ ١٣٧ ٠

(٣) تؤدى هذه الصلاة عند الحاجة الى الماء لفقدانه أو ملوحته أو قلته ، بحيث لا يكفى ، وهى كصلاة العيد ، لكن يستغفر الخطيب منها بدل التكبير فى الخطبة ويستقبل القبلة حالة الدعاء بعد صدر الخطبة الثانية ٠ (أنظر المليبارى : فتح المعين بشرح قرة العين ص ٣٣) ٠

البـلاد فيخرجون الى سرياقون (١) أو غيرها من الأماكن الشهيرة بنقاوة هوائها وذلك حتى لا يصيبهم الطاعون ٠

غير أن هذه الاجراءات لم تكن كافية للحماية من الاصابة بالطاعون خاصة وأن الطاعون كان يحدث عن طريق العدوى من البلاد المجاورة لمصر مثل الشام وشمال افريقية ، ومن ثم تعرضت مصر فى العصور الوسطى للاصابة بهذا الوباء ، مما دفع كثيرا من علماء مصر المعاصرين الى الكتابة فى أمر هذا الوباء واقتراح عدة حلول للحد من الاصابة بهـــذا المرض ، خاصة اقامة حجر صحى على البلد التى يقع بها الطاعون ، مما يتبعه تقليل انتشار الطاعون (٢) ، وهذا ما يحدث فى أيامنا الحالية حينما تنتشر بعض الاوبئة العامة ٠

---

(١) ذكر ياقوت أنها بليدة فى ضـواحى القاهرة بمصر (البلدان جـ ١ ٣ ص ١٨) وهى الان بمركز شبين القناطر محافظة القليوبية ٠

(أنظر محمد رمزى:القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ١ص٣٥)

(٢) أنظر : ابن حجر العسقلانى : كتاب بذل الماعون فى فضل الطاعون ٠

الفصل الثانى

الأزمات الاقتصادية والأوبئة
منذ الفتح الاسلامى وحتى بداية العصر المملوكى

ومنذ أقدم العصور ونحن نسمع عن الازمات الاقتصادية الطاحنة التى تعرضت لها مصر بين حين وآخر بسبب انخفاض الفيضان ، وها هى قصة يوسف عليه السلام فى القرآن الكريم تحكى عن السنوات السبع العجاف التى مرت بها البلاد · ونسمع كذلك عن الاوبئة الفتاكة التى أصابت الديار المصرية ·

ومع الفتح الاسلامى استمرت هذه الظاهرة تتكشف بين حين وآخر عن حقائق مذهلة ·

وكان أول وباء شهدته الديار المصرية بعد الفتح الاسلامى زمن الخليفة عبد الملك بن مروان وأثناء ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر ، وبالتحديد عام ٦٦ هـ (٦٨٥ م) (١) · كذلك أصاب الوباء الديار المصرية عام ٧٠ هـ (٦٨٩ م) فخرج عبد العزيز بن مروان من الفسطاط التى انتشر بها الوباء ـ والتى كانت عاصمة الديار المصرية آنذاك ـ واتجه الى صحراء حلوان (٢) ، حيث استقر فى مكان يعرف باسم

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١٨٣ ،
السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٢٧٤ ·

(٢) ياقوت : معجم البلدان جـ ٢ ص ٢٩٤ ،
أبو المحاسن : النجوم جـ ١ ص ١٧٣ ،
السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٢٧٤ ·

أبى قرقور (١) ، ويبدو أن عبد العزيز بن مروان استحسن هواء حلوان فعزم على تأسيس مدينة بها ، وبنى بها الدور والقصـــور واستوطنها وزرع بهـا البســاتين والكروم والنخيل(٢) . وفى أثناء اقامة عبدالعزيز بن مروان بحلوان كانت تجيئه أخبار الطاعون المنتشر بالفســطاط عن طريق قاضى الفسطاط عبدالرحمن بن معاوية بن حديج الكندى(٣)

وفى أيام الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان حــدث غلاء شديد عام ٨٧ هـ (٧٠٥ م) وكان ذلك أثناء ولاية أخيه عبد الله على مصر (٤) ، وكان سببه الرئيسى شراق النيــل الذى تسبب فى ارتفاع الاسعار ارتفاعا كبيرا « حتى قيل ان أهل مصر لم يروا فى عمرهم مثل تلك الايام ، وقاسى أهل مصر شدائد بسبب الغلاء » ، والمعروف أن عبد الله بن عبد الملك كان فاسد التدبير ظالم « يرتشى ويأخــذ الاموال » ، « فاستشأمت الناس به » لحدوث الغلاء الشــديد فى عهده وتوقف ماء النيل (٥) .

---

(١) ابن عبد الحكيم : فتوح مصر وأخبارها ص ٢٣٦ .
(٢) ياقوت : معجم البلدان جـ ٢ ص ٢٩٤ ،
أبو المحاسن والنجوم جـ ١ ص ١٧٣ .
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢٣٦ ،
السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٨ .
وقد توفى عبد العــزيز بن مروان متــأثرا بالاصــابة بالطاعون ويشير ابن تغرى بردى الى أن هذا الطاعون هو ثامن طاعون وقع فى الاسلام .
(النجوم جـ ١ ص ١٨٢ ـ ١٨٣) .
(٤) المقريزى : اغاثة الأمة ص ١١ .
(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢١٠ ـ ٢١١

وفى أثناء ولاية حفص بن الوليد الثانية على مصر من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك (١٢٥هـ/٧٢٣ م) حدث بمصر قحط شديد ، فأقام حفص صلاة الاستسقاء ، ودعا الله سبحانه وتعالى ، ويبدو أن أهل الذمة كانوا يشتركون مع المسلمين فى أداء تلك الصلوات من أجل زيادة ماء النيل ، ومثال ذلك ما حدث زمن ولاية أبى عون عبد الملك بن يزيد الخرسانى على مصر (عام ١٣٣-١٣٦هـ/٧٤٩-٧٥٣م)(١) عندما اشترك كل من المسلمين والاقباط فى الصلاة من أجل زيادة ماء النيل (٢) ٠

وأثناء حكم الاخشيد يين بمصر حدثت عدة أزمات اقتصادية نذكر منها تلك التى وقعت فى السنة الثالثة من حكم خماروية (٢٧٨ هـ / ٨٩١ م) حيث « غار نيل مصر حتى لم يبق منه شىء » ونتج عن توقف ماء النيل غلاء الاسعار فى معظم أنحاء الديار المصرية (٣) ٠ كذلك انتشر الغلاء فى الديار المصرية عام ٣٢٩ هـ/ ٩٤٠ م وتبعه وباء شديد (٤) ،

---

(١) من قبل الخليفة أبو العباس السفاح ثم أخيه أبوجعفر المنصور (أنظر : زامباور : معجم الانساب جـ ١ ص ٢ ، ٣٩)

(٢) سيدة كاشف : الارض والفلاح فى مصر الاسلامية ص ١٧١ - ١٧٤ ٠

يشير ابن تغرى بردى الى أن الطواعين كثرت زمن الامويين فى حين قلت حدتها زمن العباسيين ٠

(٣) أبو المحاسن ! النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٧٧ - ٧٨ ٠
(النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٣١٣)

(٤) سيدة كاشف : مصر فى عصر الطولونيين والاخشيديين ص ٢٦٥ ٠

ثم وقع الغلاء بعد ذلك عام ٣٤١ هـ/٩٥٢ م الذى استمرحتى عام ٣٤٣ هـ/٩٥٤ م ٠ وفى عام ٣٤٩ هـ / ٩٦٠م تزايد الغلاء « وقل ماء النيل ، ووهنت ضياع مصر وقراها من عدم الزيادة وعظم الغلاء وكثرت الفتن » (١) ٠ كذلك وقع غلاء شديد عام ٣٥٢ هـ/٩٦٣ م استمر حتى عام ٣٦١ هـ/٩٧١م وكان من أهم أسبابه انخفاض مياه النيل وقلة المحصولات وزاد من سوء أحوال مصر فى تلك الفترة وفاة كافور الاخشيدى (٣٤٧ هـ / ٩٦٨ م) (٢) ، وقيام الفتن والحروب التى وقعت بين الجند والامراء « وانتهبت أسواق البلد ، وأحرقت مواضع عديدة فاشتد خوف الناس ، وضاعت أموالهم ، وتغيرت نياتهم وارتفع السعر ، وتعذر وجود الاقوات » (٣) ويرى بعض الباحثين أن هذه الأزمة الاقتصادية كانت احدى الأسباب التى أضعفت الدولة وعَجلت بسقوطها (٤) ، فى حين يشير المقريزى الى أنه نتيجة ما حدث لأهل مصر فى تلك الازمة من خوف وحرمان شديدين بسبب تلك المجاعة « أنفذوا الى الخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب يستدعونهم للحضور الى مصر » (٥) ٠

وفى أيام الدولة الفاطمية شهدت الديار المصرية حدوث المجاعات أكثر من مرة ، ففى زمن الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ ـ ٤١١ هـ / ٩٩٦ ـ ١٠٢٠ م) حدث عام ٣٨٧ هـ/

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٣٢٦ ٠
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٠ ٠
(٣) المقريزى : اغاثة الامة ص ١٢ ـ ١٣ ،
أبو المحاسن : النجوم جـ ٣ ص ٣٢٦ ٠
(٤) سيدة كاشف : مصر فى عصر الطولونيين والأخشيديين ص ٢٦٥ ٠
(٥) المقريزى : اغاثة الامة ص ١٤ ٠

٩٩٧ م وعام ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٨ م غلاء شـــديد كان من أهم أسبابه نقصان ماء النيل بالاضافة الى تخزين التجار للغلال واخفائها ، لدرجة أن الخليفة الحاكم بأمر الله لم يجد حلا لهذه الازمة سوى تهديد التجار المحتـــكرين بذلك القسم : « بالله لئن عدت فوجدت فى الطريق موضعا يطؤه حمـــارى مكشوفا من الغلة لأضربن رقبة كل من يقال لى أن عنده شيئا منها ، ولأحرقن داره وأنهبن ماله » ، وبالفعـــل جاء هـــذا التهديد بنتيجة حسنة فأخرج المحتكرون ما لديهم من غلال، مما أدى الى زوال هذه المجاعة ٠

كذلك شهدت الديار المصرية زمن الخليفة المستنصر بالله الفـــاطمى (٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ/١٠٣٦ ـ ١٠٩٤ م) أكثـــر من أزمة اقتصادية، ففى أعوام ٤٤٤هـ (١٠٥٢ م) ، عام ٤٤٧هـ (١٠٥٥م) حدث غلاء فى الاسعار أعقبه وقوع البلاد فى مجاعة ، وفى عام ٤٥٧ هـ (١٠٦٤ م) كانت الشدة العظمى وتعرضت البلاد خلالها لمجاعة شـــديدة فاقت ما سبق أن شهدته من أزمات اقتصادية ، ويعزو المقريزى أسباب هذه الشدة العظمى الى « ضعف السلطنة واختلال أحوال المملكة، واستيلاء الامراء على الدوله ، واتصال الفتن بين العربان، وقصور النيل ٠٠ » (١) ٠ ومما زاد من ســـوء أحوال مصر أثنا ءتلك الازمة الاقتصادية ، ما قام به ناصر الدولة زعيم

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٣٥ ـ ٣٣٧ ،
أنظر أيضا : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣، ١٥ ـ ١٨ ، ٣١ ـ ٤٣ ، ٨٩ ٠

العنصر التركى من « حصار مصر وقطع الميرة عنهـا برا وبحرا » (١) ٠

وقد استمرت هذه الازمة سبع سنوات تزايد فيها الغلاء وأعقبها وباء (٢) ٠ وفى أثناء هـذه الازمة لعب محتـكرى الغلال من التجار والامراء دورا كبيرا ساعد على اشتدادها ، ولم تنته هذه الأزمة الا بعد أن أخرج محتكرو الغلال والسلع الغذائية سواء كانوا تجار أم خبازين أم طحانين ما لديهم من غلال ودقيق وطرحوه فى الاسواق بأسعار رخيصة ، وذلك

---

(١) المعروف أن مصر شهدت أيام الخليفة المستنصر بالله الفاطمى خـلافات داخليـة ، فكانت والدة المسـتنصر هى المسيطرة على الحكم واعتمدت على العبيد ، فى حين صارت كل طائفة تشكل حزبا مستقلا ، فكان الاتراك يمثلون حزبا ، مضاد لحزب العبيد أو السودان ودارت بين الحزبين معارك عديدة ، وكان من بين القادة الترك الذين ظهروا فى ذلك الوقت ناصر الدولة وهو من أحفاد ناصر الدولة بن حمدان ، واستطاع هزيمة العبيد الذين اعتمدت عليهم والدة المنتصر وقبض على والـدة المستنصر نفسها وصـادر أموالهـا واسـتولى على الحـكم ، وبالغ فى اهانة المستنصر بالله الفاطمى ٠

أنظر : أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٢ ص ١٨٩ ـ ١٩٠ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٧ ـ ١٨

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٣٥ ٠

بعد تهديدهم بالقتل (٢) . وقد أشار بعض المؤرخين الى أنه أثناء تلك الازمة أكل أهل مصر سائر الحيوانات مثل القطط والكلاب والحمير والبغـــال والخيـــول ، وكذلك لحـــوم الادميين !! (٢) .

وفى أيام الخيلفة الحافظ لدين الله الفـــاطمى (٥٢٤ ـ ٥٤٤ هـ/١١٢٩ ـ ١١٤٩ م) حدث بمصر قحط شديد الا أن الوزير رضوان بن ولخشى استطاع تدبير الأمر قبل اشتداد الازمة وذلك عن طريق مباشرة الاسواق والضرب على أيدى المستغلين والمحتكرين .

و يختلف الحـــال بالنسبة لذلك الغلاء الذى حـدث زمن الخليفة الفائز (٥٤٩ ـ ٥٥٥ هـ / ١١٥٤ ـ ١١٦٠ م) . فقد كان من أهم أسبابه سوء سيرة وتدبير الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيك الذى احتكر الغلات (٢) .

أما فى أيام الدولة الايوبية فقد شهدت مصر غلاء أعقبه مجاعة وباء ابتداء من عام ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) ولمدة أربعة أعوام ، أثناء حكم السلطان المنصور بن عبد العزيز (٥٩٥ ـ ٥٩٦ هـ / ١٩٨ ١ـ ١١٩٩ م) ثم السلطان الملك العادل

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٢ ص ١٨٦ ،
المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٣٥ ـ ٣٣٨ ،
ابن أياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٦٠ ـ ٦٢ .
والمعروف أن بدر الجمالى هو صاحب الفضل فى اصلاح الأمور واعادتها الى سابق عهدها (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٢ ـ ٢٣)

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٧ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٣٩ .

سيف الدين أبو بكر (٥٩٦ ـ ٦١٥هـ/١١٩٩ ـ ١٢١٨ م)(١) وذلك بسبب توقف ماء النيل عن الزيادة ، وأخذت الاسعار فى الارتفاع ،فبلغ سعر الاردبّ من القمح عام ٥٩٥ هـ ثمانين درهما ، أما الشعير والفول فقد بلغ ثمن الاردب لكل منهما أربعين درهما ، ثم تزايد الغلاء فى العام التالى ـ ٥٩٦ هـ ـ فوصل ثمن اردب القمح الى مائة درهم أما الفول والشعير فارتفع ثمنهما الى ستين درهما للأردب ، وفى عام ٥٩٧ هـ اشتد الغلاء اشتدادا كبيرا بعد أن « احترق البحـــر ـ أى النيل ـ احتراقا عظيما ، حتى نشف قدام المقياس ، وحفر قدامه ، وارتدمت طاقات الماء » . وترتب على اشتداد الغلاء أن كثرت الفقراء والصعاليك بمصروالقاهرة وخلت الارياف والضياع ، واشتد بالناس الجوع ، وأكل بعضهم بعضا ، وأكلوا الميتة ، وفرق بعضهم على الاغنياء » واضـطر عدد كبير من أهالى مصر الى الهجـــرة منها والرحيل الى بلاد المغرب والجزيرة العربية والشام (٢) . ويشير المقريزى الى أن تلك الجماعات التى خرجت الى بلاد الشام ما لبثت أن لقت نحبها فى الطريق بعد أن أعياها الجوع والمرض (٣) .

ويبدو أن هذه المحنة كانت شديدة الوقع على المجتمـــع المصرى ، مما دفع بعض المؤرخين الى ذكر أن أهل مصرأثناء

---

(١) أنظر : زامباور : معجم الانسا بوالاسرات الحاكمة ج ١ ص ١٥٠ .

(٢) ابن أيبك : الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب ص ١٣٩ ، ١٥٣ ،
أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ١٧٣ ،
السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٠٧ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ق ١ ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .

تلك المحنة لم يجدوا ما يقتاتون به ، فعمدوا الى أكل الكلاب والاطفال ، وتمـــادى بعضهم - أى بعض المؤرخين - فى المبالغة فأشاروا الى أن « الصغير كان يشويه أبواه ويأكلانه بعدموته ·وصار هذا الفعل بكثرته بحيث لاينكر » كما انتهز كثير منأولئك الجياع فرصة انتشار الوباء وأخذوايتحايلون على الاطباء ويستدعونهم الى منازلهم بحجـة علاج أحـد المرضى وذلك حتى يقعوا فريسة لهم فيقتاتون بلحومهـم من من ذلك ما رواه المقريزى من أنه « اتفق أن شخصا استدعى طبيبا ، فخافه الطبيب وسار معه على تخوف ، فصار ذلك الشخص يكثر فى طريقه من ذكر الله تعالى ، ولا يكاد يمر بفقير الا ويتصدق عليه ، حتى وصلا الى الدار ، فاذا هى خربة ، فارتاب الطبيب مما رأى ، وبينمـا هو يريد الدخول اليها ، اذ خرج رجل من الخربة وقال للشخص الذى أحضر الطبيب : مع هذا البطء جئت لنـــا بصيد واحد ، فارتاع الطبيب وفر على وجهه هاربا ·· » (١) · ويشير ابن أيبـك الدوادارى الى أن الامر لم يقتصر على الاطباء وحدهم ، بل تعدى الى سائر أرباب الصـــناعات الذين يستدعون الى المنازل ليصنعوا شـــيئا من صنائعهم ، وكذلك تفشىخطف الصغار والصبيان من الحارات والازقة (٢) وعنـدما علم السلطان العادل بهذه الافعال أمر بالقبض على جماعة من

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ١ ص١٥٩ ،
السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٢٠٧ ·

(٢) ابن ايبك : الدر المطلوب ص ١٤٩ ،
و انظر أيضا ما ذكره أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٧٣ - ١٧٤ ·

وكذلك :

Tsugitaka satao : Irrigation in Egypt p 81

آكلة لحوم الادميين « وأمر بحرقهم ، واحرقوا بمشـــاهدة جميع الناس » (١) ٠

ولكثرة من توفى جوعا من أهالى مصر أثناء تلك الازمة ولتغير الهـــواء انتشر الوباء الذى صاحب تلك المجاعة ، وازداد عدد الوفيات من الفقـــراء والمصابين بالامراض ، واضطر السلطان العادل الايوبى أن يتعهد عـــدد كبير من الفقراء بالانفاق عليهم واطعامهم ، كما عهـــد الى أغنياء الدولة بعدد وافر من الفقراء ، رغبة منه فى تخفيف ما حـل بالمجتمع المصرى من مجـــاعة ووباء حتى كان العـــــام التالى وهو عام ٥٩٨ هـ (١٢٠١م) حيث ارتفع منســـوب النيل مما بشر بزوال المحنة ورفع الغمة عن أهالى الديار المصرية وان لم تنته الازمة بهذه السرعة ، لأن معظم أهالى مصر قد توفوا لدرجة أنه « لم يوجد أحد يحرث أو يزرع ، فخرج الاجناد بغلمانهم وتولوا ذلك بأنفسهم » (٢) ٠

وفى أيام الملك الكامل محمد (٦١٥ ـ ٦٣٥ هـ / ١٢١٨ ـ ١٢٣٧ م) شهدت الديار المصرية عام ٦٣٣ هـ / ١٢٣٤ م « الطاعون العظيم بمصر وقراها ، ومات فيه خلق كثيرين من آهلها وغيرها حتى الحد » (٣)

وفى زمن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ ـ ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٠ ـ ١٢٤٩ م) انتشر الغلاء بالديار المصرية « وقاسى أهلها الشدائد » (٤) ٠

---

(١) ابن أيبك : المصدر السابق ص ١٤٩ ٠
(٢) المقريزى : اغاثة الامة ص ٢٩ ـ ٣٢ ٠
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٩٣
(٤) المصدر السابق ج ٦ ص ٣٥٢ ٠

الفصل الثالث

الازمات الاقتصادية والاوبئة
فى العصر المملوكى

أما عن أهم تلك الازمات الاقتصادية التى تعرضت لها مصر فى عصر سلاطين المماليك فأولها ما حدث فى السنة الرابعة من حكم السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ/ ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) وبالتحديد عام ٦٦٢هـ / ١٢٦٤ م ، حيث عم الغلاء معظم انحاء الديار المصرية ، حيث بلغ ثمن أردب القمح مائة وخمسون درهما نقره (١) ، والشعير سبعين درهم للأردب ، أما الخبز فكان ثمن الرطل منه درهم نقره ، فى حين كان ثمن رطل اللحم أربعة وأربعون درهما ونتيجة لارتفاع الاسعار بهذه الصورة كثر عدد الفقراء والمحتاجين ، وكادت المجاعة تقع لولا ما قام به السلطان الظاهر بيبرس من توزيع الفقراء على الاغنياء والامراء وألزمهم باطعامهم كذلك وزع الظاهر بيبرس من شونه الخاصة القمح على مختلف الزوايا والاربطة ، كما رتب للفقراء كل يوم خبزا يصرف لهم بجامع أحمد بن طولون - بلغت قيمته مائة أردب من القمح يوميا - ، واستمرت هذه الاجراءات قائمة حتى حلول المحصول الجديد ، فانحلت أسعار الحبوب ، وانتهت تلك الازمة دون وقوع مجاعة (٢)

---

(١) الدرهم النقرة وفق رأى القلقشندى هو قطعة من الفضة والنحاس الاحمر بنسبة ثلثين من الفضة وثلث من النحاس (صبح الاعشى جـ ٣ ص ٤٤٤) .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص٢١٣ - ٢١٤

المجاعة والوباء عصر العادل كتبغا :

أما تلك المجاعة التى وقعت بمصر عصر السلطان العادل كتبغا (٦٩٤ - ٦٩٦هـ/ ١٢٩٤ - ١٢٩٦ م) فمن أهم أسبابها هبوط ماء النيل وتوقفه عن الزيادة،فيشير ابن تغرى بردى الى أنه بعد أن « بلغ النيل فى عام ٦٩٤هـ ستة عشر ذراعا، هبط من ليلته فشرقت البلاد » وأعقب ذلك غلاء عظيم فى الاسعار نتيجة توقف ماء النيل عن الزيادة (١) . وقد انتهز الجشعون من التجار والمحتكرون فرصة وجود هذا الغلاء ، وأخفوا معظم السلع الغذائية مما أدى الى ارتفاع شديد فى الاسعار (٢) ، فبلغ ثمن اردب القمح مائة وعشرين درهما بعد ما كان بخمسة وعشرين درهم (٣) ، ثم ارتفع الى أن وصل سعره الى مائة وخمسين درهم فضة (٤) . ثم ازداد الأمر سوءا فى العام التالى - ٦٩٥ هـ - عندما بدأ ماءالنيل فى التوقف من جهة ، ثم هبوب رياح عاصفة محملة بالاتربة أدت الى فساد ما كان موجودا بالمزارع من محاصيل كانت على وشك النضوج ، مما أدى الى قلة المحاصيل الزراعية عام ٦٩٥ هـ وأدى بالتالى الى ارتفاع الاسعار ارتفاعا كبيرا ، وبلغ ثمن اردب القمح الى مائة وتسعين درهما والشعير الى مائة وعشرين درهما والفول والعدس الى مائة وعشرة دراهم ، فى حين عدمت الفواكه نهائيا (٥) وفى

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٦٨ .
على النقيض من ذلك يشير السيوطى الى أن عام ٦٩٤ هـ كان عام وفى النيل فيه وفاء عظيما وامتاز بوفرة المحاصيل الزراعية والغلال . (حسن المحاضرة ص ٢١١)

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ص ٢١١ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم جـ ٨ ص ٥٧ .

(٤) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٨١٠ .

(٥) المقريزى : اغاثة الامة ص ٣٣ - ٣٤ ،

Muir: The Mameluk, P.49

نفس الوقت فان تلك العاصفة أدت الى زيادة انتشار الوباء والحميات انتشارا كبيرا ، وكان الوباء قد بدأ فى الوباء والحميات انتشارا كبيرا ، وكان الوباء قد بدأ فى الظهور بالديار المصرية منذ شهر ربيع اولال عام ٦٩٤ هـ « وتزايد حتى كان يموت فيهما ـ أى فى القاهرة ومصر ـ كل يوم آلاف الموتى ، ويبقى الميت مطروحا فى الأزقة والشوارع ملقى فى الممرات والقوارع اليوم واليومين لا يوجد من يدفنه، لاشتغال الأصحاء بأمواتهم، والسقماء بأمراضهم(١) ومن الجدير بالذكر أنه « أحصى من مات بالقاهرة وثبت اسمه فى ديوان المواريث فى ذى الحجة (عام ٦٩٤ هـ) فبلغوا سبعة عشر ألفا وخمسمائة ، وهذا سوى من لم يرد اسمه فى ديوان المواريث من العربان والفقراء ومن لم يطلق من الديوان » (٢) . ثم ازداد الوباء انتشارا فى العام التالى ـ ٦٩٥ هـ ـ وذلك نتيجة الاحوال الجوية السيئة التى سادت البلاد ، وتبع ذلك كثرة عدد الوفيات لدرجة أنه كان يدفن فى اليوم الواحد حوالى سبعمائة ميت (أوائل عام ٦٩٥ هـ) أكثرهم من الفقراء والغرباء ، وجدير بالذكر أن الموتى الغرباء قبل هذا الوباء كانوا يغسلون فى الميضأة ، أما بعد تزايد عدد من توفى بسبب هذا الوباء ، فصاروا يدفنون « بغير غسل ولا كفن » ، وذلك نتيجة كثرة عددهم من جهة ولانشغال الافراد بأمر مرضاهم من جهة ثانية ، لدرجه أنه « عجز الناس عن مواراة موتاهم فى القبور لكثرة عددهم وقلة وضعف من يصنع لهم تلك القبور أو يحفرها ، ولذلك كانوا يصنعون حفرا كبارا يلقى فيها الاموات سواء من

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨٠٨

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٥٧

الرجال أو النساء أو الاطفال ، حتى تمتلىء الحفرة بالموتى، فتوارى بالتراب » ، أما حملة هؤلاء الموتى فكانوا فريقا من المشاعلية أو حملة الموتى الذين كانوا يحصلون نصف درهم عن كل ميت نظير حمله الى الحفرة أو المقبرة ، ولكن فى بعض الاحيان كان هؤلاء الحملة يرمون الميت اما فى النيل أو الحفرة أيهما أقرب ، وفى أحيان أخرى كانو يرمون الاموات فى الابار حتى تمتلىء بالموتى ثم توارى بالتراب ، أما عن طريقة حمل الاموات فكانوا يحملون جماعات لكثرتهم فى شباك على الجمال الى مكان مواراتهم (١) وهكذا كثرت عدد الوفيات لدرجة أن ابن حجر العسقلانى أشار الى أنه «بلغ عدد الوفيات فى اليوم الواحد سبعة آلاف نفس» (٢) . كذلك انتشر الوباء فى معظم المواشى والدواب بالديار المصرية ، مما أدى الى زيادة حدة المجاعة المصاحبة لهذا الوباء (٣) .

وثمة ملاحظة يجب الاشارة اليها وهى كثرة ماساد كتابات المؤرخين من ذكر أن أهالى مصر أثناء تلك المجاعة « أكلوا الميتة من الكلاب والمواشى، وبنى آدم، وأكل النساء أولادهن الموتى!!» وهذه العبارات بها مبالغة واضحة وتصوير غير حقيقى لأهالى مصر ، وذلك على الرغم من أن بعض المؤرخين يروون

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٨١٤ ،
Muir : The Mameluke P. 49

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٣٤٩ .

(٣) المقريزى : اغاثة الأمة ص ٣٣ ـ ٣٤ .

قصص وحكايات - هى أقرب الى الخيال منها الى الحقيقة - ليبرهنوا على صحة حديثهم ، من ذلك مثلا ، ما يرويه المقريزى من أن بعض الامراء رأى بباب داره امرأة لها هيئة حسنة ، وهى تستعطى ، فرق لها وأدخلها داره ، فأحضر لها رغيفا واناء مملوء طعاما ، فأكلته كله ولم تشبع ، فقدم اليها مثله ، فأكلته وشكت الجوع فما زال يقدم لها وهى تأكل حتى اكتفت ، ثم استندت الى الحائط ونامت ، فلما حركوها وجدت ميتة فأخذوا من كتفها جرابا ، فلقوا فيه يد انسان صغير ورجله ، فأخذ الامير ذلك وصعد به الى القلعة وأراه السلطان والأمراء » (١) . وتجب الاشارة الى أن مثل هذه الروايات سبق أن رأيناها - وذكرنا بعضا منها - أثناء الحديث عن تلك المجاعة التى وقعت زمن العادل الأيوبى ، ولكن الى أى حد تصدق هذه الروايات ؟ حقيقة كانت هناك مجاعة قاسية وقحط شديد حل بالديار المصرية ، لدرجة دفعت بالكثير من أهالى الديار المصرية الى تناول لحوم بعض الحيوانات الأليفة مثل القطط والكلاب وأوراق الشجر والأخشاب ولكن لم تصل بهم الوحشية الى درجة تناول لحوم الآدميين ، أما الذين روى لنا تلك الروايات فهم مؤرخون متأخرون بعض الشىء عن أحداث تلك المجاعة عاشوا فى القرن التاسع الهجرى والعاشر الهجرى أمثال المقريزى (ت ٨٤٥ هـ) والسيوطى (ت ٩١١ هـ) فى حين أننا نجد حديث من عاصر هذه المجاعة حديثا خاليا تماما من تلك الروايات ، فهذا هو أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ) - وكان معاصرا لهذه المجاعة - يشير الى أنه « فى عام ٦٩٤ هـ قصر

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨١٣

النيل تقصيرا عظيما ، وتبعه غلاء وأعقبه وباء وفنـــاء عظيم » (١).

ومن الجدير بالذكر أن هذه الأزمة الاقتصادية والمحنة الوبائية التي شهدتها الديار المصرية فى تلك الفترة، شهدتها أيضا معظم أنحاء المشرق (٢) حيث « انتشر القحط فى بلاد المقدس والساحل ومدن الشام الى حلب ، فبلغت الغـرارة القمح الى مائتى درهم وعشرين ، والشعير بالنصـف من ذلك ، واللحم الرطل الى عشرة دراهم ، والفاكهة الى أربعة أمثالها ، وكان ببلاد الكرك والشوبك وبلاد الساحل يرصـد للمهمات ما ينيف عن عشرين ألف غراره ، فحمـلت الى الأمصار ، وأقحطت مكه ، فبلغ الاردب بها الى تسـعمائة درهم ، والشعير الى سبعمائة ، فرحل أهلها حتى لم يبق بها الا اليسير من الناس ونزحت سكان قرى الحجاز ، وعدم القوت ببلا داليمن واشتد بها الوباء ، فباعوا أولادهم فى شراء القوت ، وفروا الى حل بنى يعقوب ـ احـدى بلاد اليمن الشمالية ـ فالتقوا بأهل مكة ، وضاقت بهم البلاد ، ففنوا كلهم بالجوع الا طائفة قليلة ، وقحطت بلاد الشرق ، وعدمت دوابهم وهلكت مراعيهم » (٣)

وقد بذل السلطان العادل كتبغا قصارى جهده من أجـل تخفيف هذه الطامة التى حلت بالمجتمع المصرى ، فجمـع

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أجبار البشر جـ ٤ ص ٣٣ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٨١٠ ،

ويشير أبو المحاسن الى أن الغلاء انتشر « شرقا وغربا » النجوم جـ ٨ ص ٦٠

(٣) المقريزى : اغاثة الأمة ص ٣٦ ـ ٣٩.

الفقراء ووزعهم على الأمراء والأغنياء بحيث ألزم كل أمير بعدد من الفقراء والمعوزين ، فخص أمير المائة مائة فقير، وأمير الخمسين خمسون فقيرا ، أما أمير العشرة فخصه عشرة فقراء وكان كل أمير يقوم باطعام فقرائه بمايستطيع أن يقدمه اليهم من أطعمة ، وقد ساعد هذا الاجراء على تخفيف حدة هذه المجاعة بعض الشيء (١) · ويشير ابن حجر العسقلانى الى أن هذا الاجراء انقذ الديار المصريةمن هلاك مؤكد و « لمات الجميع من الغلاء » (٢) · كما أمر العادل كتبغا بالخروج لأداء صلاة الاستسقاء عسى أن يزيد الله من ماء النيل (٣) وفى نفس الوقت كثرعمل الأطباء أثناء انتشار هذا الوباء ، والمعروف أن مصر زخرت بعدد وافـــر من الأطباء البارعين فى مهنة الطب ·

ولم تلبث تلك الغمة أن انقشعت أواخـر عام ٦٩٥ هـ ، بحيث أنه لم يحل العام التالى (٦٩٦ هـ) « الا ورخصـت الاسعار ، وارتفع الغلاء ، وشفى كثير من الناس » ·

وكان لهذه المجاعة وذلك الوباء أثر كبير على الحياتين الاجتماعية والاقتصادية بمصر فى تلك الفترة، فمن الناحية الاقتصادية كثرت أرباح التجار والمحتـكرين والبـاعة وازدادت ثروتهم من وراء التلاعب بالأسعار ، كذلك كثر التلاعب بالعملة ، ممـا أدى الى اضـطراب الأحـوال الاقتصادية ، وفى نفس الوقت كثرت المصادرات فى الولاة

---

(١) المقريزى : اغاثة الأمة ص ٣٥
(٢) ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٤٩
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٧١

وأرباب الأموال ٠(١) أما من الناحية الاجتماعية ، فقد تناقص عدد سكان مصر تناقصا ملحوظا لدرجة تعطلت معها كثير من الأعمال ، ومن الاثار الاجتماعية ما حدث من توقف كثير من الأفراد عن منح العطاء للفقراء والصالحين، ويشير الادفوى الى أنه بعد أن أيقن الناس من أن النيل توقف عن الزيادة عام ٦٩٤ هـ « امتنعوا عن العطاء ٠٠ » ، وقد أضر هذا المنع بأحوال كثير من أولئك الذين عاشوا على العطاء سواء كانوا فقراء أم الفقهاء والصالحين ، ومن بين أولئك الفقهاء الذين حرموا من العطاء محمد بن محمد بن عيسى النصيبى القوصى ، وكان مقيما بأحد المساجد المجاورة للمدرسة الشمسية بمدينة قوص ، مما دعاه الى نظم قصيدة لقاضى قوص اسماعيل بن موسى السفطى جاء فيها : (٢)

وكم من مرجف بظنون سوء
فلا صدقت ظنون المرجفينا
بخوف من سنى جدب ونرجو
دوام الخصب من رب السنينا
أنخشى عيلة ونخاف فقرا
وزين الدين اسماعيل فينا

غير أن هذا الوضع لم يكن هو السمة الغالبة على المجتمع المصرى فى تلك الفترة ، فظل كثير من الأغنياء على حالهم من توزيع الأموال والغلال على الفقراء والمحتاجين طوال فترة المجاعة ، من ذلك ما فعله الأمير نجم الدين وهو

---

(١) المقريزى : اغاثة الأمة ص ٣٦ ـ ٣٩ ٠
(٢) الادمونى : الطالع السعيد ص ٦١٣ ـ ٦١٤ ٠

من بنى كنز بأسوان و « قام بفقراء أسوان وأعطى الغلال حتى نفدت ثم الثمار حتى فرغت ، ثم ذبح النعم حتى خرج الغلاء » (١) .

ومن الاثار الجانبية لهذه المجاعة وذلك الوباء ، تشاؤم أهالى مصر بسلطنة العادل كتبغا التى استهلت بهبوط ماء النيل بعد زيادته (٢) ، وهو ما دفعهم الى التمسك ببيت قلاوون

توقف ماء النيل عن الزيادة زمن بيبرس الجاشنكير :

وفى أيام السلطان بيبرس الجاشنكير (٧٠٨ - ٧٠٩هـ/ ١٣٠٨ - ١٣٠٩ م) وبالتحديد فى عام ٧٠٩ توقف النيل عن الزيادة فارتفع سعر القمح وسائر الغلال (٣) ، وزاد من حدة هذه الأزمة أن الأمراء منعوا بيع الغلال من شونهم . وخشى أهل مصر أن يقع الغلاء ويشتد كما حدث زمن العادل كتبغا « وتشاءم الناس بسلطنة المظفر بيبرس المذكور » ، وعلى عادة أهل مصر حينما يتوقف ماء النيل عن الزيادة خرج الخطيب نور الدين على بن محمد بن الحسن القسطلانى بالناس لأداء صلاة الاستسقاء ، غير أنه ازداد نقصان ماء النيل ، فازداد تشاؤم الناس بسلطنة بيبرس وغنت العامة : .

سلطاننا ركين .. ونائبنا دقين .. يجينا الماء من أين
يجيبوا لنا الأعرج .. يجى الماء ويدحرج

---

(١) المصدر السابق ص ٣٠ - ٣١ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٦٨
(٣) المقريزى : السلوك جـ ٢ ق ١ ص ٥٥

فكره بيبرس الجاشنكير هذا القـــول من عامة مصر ، ولذلك وقعت الوحشة بين بيبرس وعامة الناس منـــذ تلك الأزمة (١) ولم تكن الأزمة الاقتصادية وحـــدها هى التى شهدها المجتمع المصرى ، خلال عصر بيبرس الجاشنكيرفقد « فشا بالناس أمراض حادة ، وعم الوباء ، وطلبت الأدوية والأطباء ، وعز وجود ما يحتاج اليه المرضى » (٢) ٠

الناصر محمد والأزمات الاقتصادية :

وأثناء سلطنة الناصر محمد الثالثة (٧٠٩ ـ ٧٤١ هـ / ١٣٠٩ ـ ١٣٤٠ م) والأخيـرة ، والتى ظهـرت خلالهـــا شخصية الناصر محمد الحقيقية ، وقدرته على ضبط أمور البلاد ، شهدت الديار المصرية عدة أزمات اقتصادية ، كان النيل هو العامل المسبب لمعظمها ، فى حين كان احتـــكار التجار للسلع الغذائية سبب بعضها الاخر ، فتشير المصادر التاريخية الى أنه فى أوائل سلطنة الناصر الثالثة وبالتحديد عام ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) « قصر النيل وشرقت وارتفـــع السعر » (٣) ، وكذلك فى عام ٧٢٠ هـ (١٣٢٠ م) « هبـط النيل بسرعة ، فشرقت الأراضى » (٤) ، ويشير ابن الوردى الى أنه صاحب تلك الأزمة الاقتصـــادية « أمراض حادة ، وغلت الأدوية فى حين كان الموت قليلا » (٥) ٠

ويبدو أن السلطان الناصر محمد أدرك أن الوقاية من

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤
(٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ ق ١ ص ٥٥
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ١٠
(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٢٥١
(٥) ابن الوردى : تتمة المختصر جـ ٢ ص ٣٨٦ ٠

تلك الازمات الاقتصادية التى تتعرض لها البـــلاد لا يتأتى الا باحكام الاشراف على مياه النيل وصيانة الجســـور ، لذلك اهتم بصيانة الجســـور « وأحـــكم عامة أراضى مصر قبليها وبحريها بالتراع والجسور حتى أتقن أمرها ، وكان يركب اليها برسم الصيد كل قليل ، ويتفقد أحوالها بنفسه ، وينظر فى جسورها وتراعها وقناطرها ، بحيث انه لم يدع فى أيامه موضعا حتى عمل فيه ما يحتاج اليه ... فزاد فى أيامه خراج مصر زيادة هائلة فى سائر الأقاليم . وكان اذا سمع بشراقى بلد أو قرية من القرى همه ذلك ، وسأل المقطع بها عن أحوال القرية المذكورة غير مرة ، بل كلما وقـــع بصره عليه ، ولا يزال يفحص عن ذلك حتى يتوصـــل الى ريها بكل ما تصـــل قدرته اليه .. وكان يفـــرح كلمـــا سأله بعض الاجناد فى عمل مصلحة بلده بسبب عمل جسر أو تقاوى أو غير ذلك وينبل ذلك الرجل فى عينه ، ويفعل له ما طلبه من غير توقف ولا ملل فى اخراج المال فان كلمه أحد فى ذلك يقول : فلم نجمع المال فى بيت مال المسلمين ، الا لهذا المعنى وغيره » (١) .

واستمرت الأحوال الاقتصادية زمن الناصر محمد على ما يرام اللهم ما حدث عام ٧٣٢ هـ (١٣٣١م) عندما بلغت زيادة النيل تســعة عشر ذراعا « فاستبحرت بعض أراضى مصر .. وأتلف للناس من القصـــب ما يزيد على ألف ألف دينار » (٢) .

---

(١) أبو الماحسن : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص١٩٢ـ١٩٣

(٢) ابن الوردى : تتمة المختصر جـ ٢ ص ٤٢٦ .

أما تلك الأزمة الاقتصـــادية التى حدثت عام ٧٣٦ هـ (١٣٣٦ م) فكان سببها احتكار التجار لبيع الغلال ، ولم تلبث معظم السلع الغذائية أن اختفت من الأسواق وارتفعت أثمانها ، غير أن السلطان النـــاصر محمد استطاع تدبير الأمر بشىء من الحكمة وأخرج مصر من تلك الأزمة قبل أن تستفحل وتحل المجاعة بالديار المصرية ، فرتب جماعة من أعوانه يقفون على أبواب المخابز ، لتنظيم بيع الخبز ومتابعة بيعه فى الأسواق ، كما أمر كبار أمراء دولته بفتح مخازنهم وشونهم وبيع ما فيها من القمح بسعر ثلاثين درهم للأردب، فى حين وصل سعر القمح أثناء تلك الأزمـــة الى سبعين درهما ، وبدأ الناصر محمد بنفسه ، ففتح خزانته الخاصـــة وباع أردب القمح بخمسة وعشرين درهما (١) ، وتشـــدد الناصر محمد مع كل من خالف أوامـــره (٢) ، وفى نفس الوقت عمل السلطان الناصر محمد على احضار الغلال الى مصر من دمشق وغزة والكرك والشوبك ، بقصد تخفيف تلك الأزمة التى لم تلبث أن زالت نهائيا فى رمضـــان عام ٧٣٦ هـ (١٣٣٦ م) وبذلك لم تستمر سوى ثلاثة أشهر فقط، دون أن تحدث أية أضرار بالمجتمع المصرى .

انخفاض النيل زمن الكامل شعبان :

وأثناء سلطنة الكامل شعبان ابن السلطان الناصر محمد (٧٤٦ ـ ٧٤٧ هـ / ١٣٤٥ ـ ١٣٤٦ م) وبالتحـــديد عام ٧٤٦ هـ « قل ماء النيل حتى صار ما بين المقيـــاس ومصر

---

(١) المقريزى : اغاثة الأمة ص ٣٦ ـ ٤٠ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٦٤ ـ ١٦٩ .

يخاض ، وصار من بولاق الى منشأة المهرانى طريقا يمشى فيه ، .. وبعد الماء على السقايين وصاروا يأخذون المـاء من تجاة قرية منبابة ، وبلغت راوية الماء الى درهمين بعدما كانت بنصف درهم » (١)

الوباء العام ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م :

وخلال سلطنة الناصر حسن بن الناصر محمـــد الأولى (٧٤٨ ـ ٧٥٢هـ / ١٣٤٧ ـ ١٣٥١ م) وبالتحديد منـــذ أواخر عما ٧٤٨ هـ بدأ الوباء فى الظهـور بالديار المصرية وهو الوباء « الذى لم يقع مثله فى سالف الأعصـــار » ، والواقع أن هذا الوبا لم يقع بمصر وحدها بل « عم أقاليم الأرض شرقا وغربا وشمالا وجنوبا جميع أجناس بنى آدم وغيرهم ، حتى حيتان البحر وطير السماء ووحش البر » (٢) وأدى الى وفاة الملايين من البشر (٣) .

وظهر هذا الوباء أولا فى بلاد الشرق ثم أخذ يتنقل عن طريق العدوى (٤) مصاحبا الطرق التجارية (٥) حتى وصل الى القسطنطينة وشرق أوربا،ثم وصل الى العراق والشام

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهـــرة جـ ١٠ ص ١٣٠ ـ ١٣١ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٠ ص ٩٥ ـ ١٩٨

Geoffrey The medieval Plague P 26

3-Hodgett: Asocial and Economic histay of medieval EuropeP. 199

(٤) ابن الوردى : النبا عن الوبا .

Geoffrey: The medieval Plague P 46-7

كما تفشى فى جزر البحر المتوسط ووصل الى غرب أوربا (١) حيث عرف هناك باسم « الوباء الأسود » (٢) ثم انتقل الى مصر ، وكان ابتداء ظهوره بها « فى آخر أيام التخضير فى فصل الخريف أواخر عام ٧٤٨ هـ ، فمـا أهل المحـــرم عام ٧٤٩ هـ حتى اشتد فى شعبان ورمضان وشوال ٠٠ وكان يموت بالقاهرة ومصر ما بين عشرة آلاف الى خمسة عشر ألف نفس فى كل يوم » (٢)

ويجمع المؤرخون على أن هذا الطاعون انما أصاب مصر عن طريق العدوى من جهة الغرب ، فكان مبدأ ظهوره بمصر « بأرض برقة الى الاسكندرية » ومن الاسكندرية أخذ ينتشر

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٠ ص ١٩٥
للمؤرخ المعروف ابن الوردى رسالة شـــهيرة تسمى « **النبا عن الوبا** » جاء فى أولها عن انتشار هـــذا الوباء « طاعون روع وأمات ، وابتدأ خبره من الظلمات ، يا له من زائر ، من خمسة عشر سنة دائر ، ما صين عنه الصين ، ولا منع منه حصن حصين ، سل هنديا فى الهند ، واستند على السند ، **وقبض بكفيه وشبك** ، على بلاد أزبك ، وكم قصم من ظهر ، فيما وراء النهر ، ثم ارتفع ونجـــم ، وهجم على العجم ، وأوسع الخطا ، الى أرض الخطا ، وقرم القرم ، ورمى الروم ، بجمر مضطرم ، وجر الجـــرائر ، الى قبرص والجزائر ، ثم قهر خلقا بالقاهرة ، وتنبهت عينه لمصر فاذا هم بالساهرة ، وسكن حركة الاسكندرية ،فعمل شغل القز الحريرية ، وأخذ من دار الطراز الدار ، وصنع بصـــناعها مـا جرت به الأقدار ٠٠٠ »

Muir : The mameluke P 94

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٠ ص ١٩٥

فى باقى البلدان المصرية مثل دمنهور وتروجه والبحيرة والمحلة ومعظم قرى الغربية والشرقية ، كذلك لم ينج الصعيد من الاصابة بهذا الطاعون (١) ٠

ويشرح كثير من المؤرخين المعاصرين أعراض هذا الطاعون فيشير ابن الوردى ـ وهو ممن شاهد هذا الطاعون وتوفى أثناءه عام ٧٤٩ هـ (٢)ـ بأنه يتتبع أهل الدار فمتى بصق واحد منهم دما تحقق كلهم عدما » ٠ ويشرح أبو المحاسن تطور أعراض هذا المرض بقوله : « انه كان يخرج خلف اذن الانسان بثره فيخر صريعا ، ثم صار يخرج للانسان كبه ـ غدة شبه الخراج ـ فيموت أيضا سريعا ، ثم خرجت بالناس خياره فقتلت خلقا كثيرا ، ثم صار الادمى يبصق دما ويموت من وقته ، فاشتد الهول من كثرة الموت » واستمرت تلك الأعراض الاخيرة فترة طويلة ، وهى أن يحس الانسان فى نفسه حراره ويجد غثيانا فيبصق دما ويموت عقبه ، وزاد الطين بلة ، أن العدوى بهذا الوباء كانت سريعة فاذا بصق المريض تبعه المحيطون به « واحدا بعد واحد حتى يفنوا جميعا بعد ليلة أو ليلتين » فازداد اضطراب الناس وخوفهم من هذا المرض ، ويشير كثير من المعاصرين الى أنه بلغت الوفيات فى اليوم الواحد عشرين ألف نفس (٢) وكانت الأموات تحمل « على الأقفاص ودرايب

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٠ ص ١٩٦ ـ ٢٠٤ ٠

(٢) ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة حـ ٣ ص ٢٧٣

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٠ ص ١٩٥ ـ ٢٠٨ ٠

الحوانيت ، وصار يحمل الاثنان والثلاثة فى نعش واحد وعلى لوح واحد » ، وصنع كثير من الصالحين « التوابيت والدكك لتغسيل الموتى للسبيل بغير أجره » (١) ٠

وكان لهذا الوباء اثار كبيرة على المجتمعات التى أصابها (٢) ، وبالنسبة لآثاره على المجتمع المصرى ، فبالاضافة الى اضطراب الحياة بمصر توقفت معظم الصناعات من ذلك مثلا اغلاق دار الطراز بالاسكندرية ، ولعدم الصناع ، كما أغلقت دار الوكالة والاسواق ومما يقال أيضا أن والى المحلة لم يجد من يشكو اليه لكثرة الوفيات ، كما أن القاضى بها اذ أتاه من يريد الاشهاد على شخص لا يجد من العدول أحدا الا بعد عناء لقلتهم ٠ أما الفلاحون فقد توفى عدد كبير منهم لدرجة أن معظم البلدان المصرية خلت منهم بحيث « لم يوجد من يضم الزرع » فاضطر الجنود الى الخروج لحصاد الزرع ودراسه ، أما الأجناد فقد اختطف أغلبهم الموت مما أدى الى انتقال اقطاعاتهم الى « أرباب الصنائع من الخياطين والأساكفة، وركبوا الخيل ولبسوا الكلفتاه والقباء « فأحدث هذا تغيرا اجتماعيا كبيرا بالمجتمع المصرى ٠

ومما يجدر ذكره أنه لم يحدث غلاء أو مجاعة « فكان الرخاء موجودا وانحط سعر القماش حتى أبيع بخمس ثمنه وأقل ، ولم يوجد من يشتريه ، وصارت كتب العلم ينادى عليها بالأحمال ، فيباع الحمل بأرخص ثمن ٠ وانحط قدر الذهب والفضة حتى صار الدينار بخمسة عشر درهما بعد ما كان بعشرين » (١) ٠

---

(١) ذكر ابن حجر العسقلانى أسماء عدد كبير ممن توفى أثناء هذا الطاعون راجع الدرر الكامنة ج ١ ، ٢ ، ٣ ٠

(٢) عن الاثار الاجتماعية لهذا الوباء على أوربا أنظر :

Hodgett : A social and Economic hist of the medieval Europe p204-208

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٢١٠ ٠

وعلى الـــرغم من تلك الأضرار التى لحقت بالمجتمـع المصرى خلال فترة انتشار هذا الوباء ، الا أن كثيـــرا من الباحثين المعاصرين يرون أن هذ الطاعون ذو فائدة كبيرة، فيشير عمر بن مظفر زين الدين الشهير بابن الوردى الى أنه « من فوائده ـ فوائد الطاعـــون ـ تقصـــير الآمال ، وتحسين الأعمال، واليقظة من الغفلة،والتزويد للرحلة »(١) وأدى هذا الى ظهور أفكار التصـــوف ٠ ويرى فريق من الباحثين أن الطاعون « للمسلمين شهادة وأجر ، وللكافرين رجز وزجر » (٢) وقد أنشد فى أمر هـــذا الطاعون بعض الشعراء قصائد نذكر منهاعدة أبيات قالها الشاعر ابراهيم بن على المعمار المعروف بغلام النورى (٣) ٠

يا من تمنى الموت قم فاغتنم
هـــذا أوان المـــــوت ما فاتا
قـــد رخص المـــوت على أهله
ومـــــات من لا عمـــــره ماتا

ثم أخذ هذا الوباء فى التناقص منذ بداية شهر المحرم عام ٩٥٠ هـ (١٣٤٩ م) (٤) ٠

---

(١) ويورد ابن الوردى عدة أبيات تشير الى استعداد الناس للموت نذكر منها :

فهـــذا يوصى بأولاده وهـــذ ايودع جيرانه
وهذا يهىء أشـــغاله وهذا يجهـــز أكفانه
وهذا يصالح أعداءه وهذا يلاطف جيرانه

(٢) عن شرح هذا الرأى انظر بعده
(٣) كان شاعرا عاميامن شعراء القرن الثامن الهجرى، أنظر : ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ١ ص ٥٠ ٠
(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ١٠ ص ٢١٣

الوباء والغلاء أواخر دولة المماليك البحرية :

وفى أثناء سلطنة الناصر حسن بن الناصر محمد الثانية (٧٥٥ ـ ٧٦٢ هـ / ١٣٥٤ ـ ١٣٦٠ م) وبالتحديد عام ٧٦١هـ(١٣٥٩م) وقع وباء آخر بالديار المصرية ، واستمر حتى أوائل عام ٧٦٢ هـ (١٣٦٠م) ، وتوفى فى هذا الوباء عدد كبير من الأعيان وغيرهم ، وكان الفرد الذى يصاب بهذا الوباء لا يمكث أكثر من أربعة أيام أو خمسة حتى تأتيه منيته (١) ٠

وكذلك وقع بالديار المصرية والبلاد الشامية طاعون آخر عصر السلطان المنصور محمد (حفيد الناصر محمد) ٧٦٢ ـ ٧٦٤ هـ / ١٣٦٠ ـ ١٣٦٣ م ، وبالتحديد عام ٧٦٤ هـ مات فيه عدد كبير من أهالى مصر (٢) ، ولكنه لم يكن بقدر طاعون عام ٧٤٩ هـ ٠ وبلغ عدد من توفى فى شهر رجب من نفس العام (٧٦٤ هـ) ثلاثة الاف ، واستمرت الأمراض متفشية فى الأهالى حتى شهر رمضان من نفس العام (٣) ٠ ويبدو أن هذا الطاعون والذى سبقه فى عام ٧٦١ هـ ، كانا نتجية عدوى لأمراض وأوبئة متفشية فى منطقة الشرق ، اذ

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٠ ص ٢١١
يقال لهذا الوباء « الوباء الوسطى » لأنه وقع بين وبائين
أنظر السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٢١١ ٠
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ١٧ ،
السيوطى : حسن المحاضرة حـ ٢ ص ٢١١ ٠
(٣) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ١ ص ٨١ ـ ٨٢
وعمن توفى أثناء هذا الطاعون أنظر :
ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٢٤٧

أنه من الثابت أن كلا من دمشق وغزة وحلب وسائر بلاد الشام أصيبت بهذا الوباء ، مما تبعه انتشار سريع بين ربوع الديار المصرية خلال هذين العامين (١) .

وخلال سلطنة الأشرف شعبان (٧٦٤ - ٧٧٨هـ /١٣٦٢ - ١٣٧٦ م) وقع الوباء والغلاء بالديار المصرية أكثر من مرة ، ففى عام ٧٦٩ هـ انتشر الوباء بها « واستمر يعمل فى الناس قرابة أربعة أشهر ثم ارتفع » (٢) ، وتوفى متأثرا به عدد كبير من أهالى الديار المصرية (٣) .

وزاد من حدة الاضطراب الذى صاحب هذا الوباء ، ما حدث من فتن سياسية خاصة تلك التى أثارها المماليك الأجلاب - الجلبان - (٤) .

وشهد عامى ٧٧٥ ، ٧٧٦ هـ (١٣٧٣ - ١٣٧٤ م) غلاء شديدا بالديار المصرية ، نتج عن انخفاض منسوب مياه النيل ، حيث وفى النيل فى هذا العام وبلغت زيادته ستة عشر ذراعا ، لكن هذه الزيادة لم تكن كافية لرى كافة أراضى الديار المصرية ، فشرقت معظم الأراضى وأطلق المؤرخ جمال الدين أبى المحاسن ابن تغرى بردى على هذه السنة (٧٧٥ هـ) « سنة الشراقى » لهذا السبب (٥) ، ولم يلبث أن وقع الغلا وتزايدت الأسعار، خاصة أسعار الغلال، حيث وصل سعر أردب القمح الى تسعين درهما ، وكذلك

---

(١) المقريزى : السلوك حـ ٣ ق ١ ص ٨٢

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٥٢

(٣) ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٣٨٤

(٤) ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة جـ ١ ص ٤١٣

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ١١ ص ٦٥ ، ١٢٩

ارتفعت أسعار الدواجن واللحوم (١) ، وزاد الحالة سوءا حدوث وباء شديد نتج عن كثرة من مات جوعا وتركت جثته ملقاة فى الطرقات ، وانتشر هذا الوباء انتشارا سريعا ، « وصار يموت فى كل يوم من العشرة ـ هم الذين يموتون دون وارث فتؤول أموالهم الى ديوان المواريث ـ نحو خمسمائة نفس » (٢) . واستمر الحال على ذلك طيلة أعوام ٧٧٥ هـ ، ٧٧٦ هـ وأوائل عام ٧٧٧ هـ .

ونتيجة للأحوال السيئة التى عاشتها مصر خلال هذه الفترة ، كثرت أعداد الفقراء والمحتاجين ، وهم الذين كانوا دائما وقود تلك المجاعات ، مما دفع السلطان الأشرف شعبان الى جمع الفقراء والمحتاجين وتوزيعهم على الأغنياء والأمراء والتجار، حتى يضمن لهم لقمة العيش والاستمرار

---

(١) المقريزى : اغاثة الأمة ص ٤٠ ،
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٦٦
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٦٦ ، ١٣٠
ومن بين أولئك الذين توفوا فى هذا الوباء أحمد بن يحيى بن أبى بكر بن عبد الواحد بن ابى حجلة شهاب الدين التلمسانى ، ولد فى تلمسان عام ٧٢٥ هـ ، وقدم القاهرة ، واشتغل بالأدب وولع به حتى مهر ، ثم ولى مشيخة الصوفية بصهريج منجك ظاهر القاهرة ، وكان كثير المروءة ، وأنشأ مقامات أجاد فيها ، ومن مؤلفاته : ديوان الصبابة ، ومنطق الطير ، والسجع الجليل فيما جرى فى النيل ، والسكردان والأدب الفض وأطيب الطيب ، ومواصيل المقاطع ، والنعمة الكاملة فى العشرة الكاملة ، وحاطب ليل فى عدة مجلدات .
أنظر : ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ١ ص ٣٥٠ ـ ٣٥١ .

فى الحياة . واستمرت هذه الاجراءات قائمة حتى زيادة منسوب النيل عام ٧٧٧ هـ مما أدى الى زيادة المحصولات وهبوط الأسعار وتخفيف حدة المجاعة ثم زوالها نهائيا (١)

ولم تلبث الديار المصرية أن ابتليت بالطاعون عام٧٨٢هـ (١٣٨٠ م) اثناء سلطنة السلطان المنصور على (٧٧٨ ـ ٧٨٣ هـ/١٣٧٦ ـ ١٣٨١ م) وقد « مات فيه عالم كثير جدا « على حد قول مؤرخنا جمال الدين أبى المحاسن (٢) .

الاضطرابات الاقتصادية زمن السلطان برقوق (٣)

وفى أيام السلطان برقوق (٧٨٤ ـ ٧٩١ هـ / ١٣٨٢ ـ ١٣٨٩ م ، ٩٧٢ ـ ٨٠١ هـ/١٣٩٠ ـ ١٣٩٩ م) شهدت مصر اضطرابات اقتصادية أدت الى « توقف أحوال الناس» على حد تعبير مؤرخى مصر فى العصور الوسطى ، وقد ابتدأت هذه الاضطرابات الاقتصادية بحدوث الغلاء فى بداية حكم برقوق وبالتحديد فى عام ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م حيث « تزايد سعر الغلال ، وعدم وجود الخبز فى الأسواق،

---

(١) المقريزى : اغاثة الأمة ص ٤٠ ـ ٤١ .

ومن الجدير بالذكر أن هذا العام (٧٧٧ هـ) الذى شهد انخفاض الأسعار ووفرة المأكولات بمصر ، شهد أيضا « الغلاء المفرط بالبلاد الشامية ، حتى أكل الناس الميتات والكلاب والقطط !! » .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ١١ ص ١٣٦ .

(٢) النجوم الزاهرة حـ ١١ ص ٢٠٢ .

(٣) يعتبر بداية حكم السلطان الظاهر سيف الدين برقوق هو فاتحة عصر المماليك البرجية الذى استمر حتى نهاية المماليك عام ٩٢٢هـ / ١٥١٧ م .

٠٠ ووصل ثمن أردب القمح الى مائة وخمسين درهما ، والرطلين من الخبزبدرهم » واستمر هذا الغلاء حتى نضج المحصول الجديد فانخفضت الأسعار وتزايد الرخاء (١) ، ويشير بعض المؤرخين المعاصرين الى أنه « أبيع اللحم كل عشرة أرطال بثمانين درهم ، والقمح كل اردب من عشرة دراهم الى ثمانين درهما ٠٠ » ومعنى هذا أن أسعار المواد الغذائية رخصت الى درجة كبيرة (٢) ٠ ومن الجدير بالذكر أن المحتسب فى ذلك الوقت كان محمد بن محمد بن عبد الله القيصرى وهو الذى تولى وظيفة الحسبة منذ عام ٧٨٢ هـ وقد تيمن العامة بأيامه نتيجة رخص الأسعار فى عهده ، وتمسكوا به ، وزاد تمسكهم به أنه عندما صرف عن الحسبة عام ٧٨٣ هـ حدث الغلاء السابق الاشارة اليه (أواخر عام ٧٨٣ وأوائل عام ٧٨٤هـ) ، مما أدى الى ثورة عامة المجتمع المصرى على الظاهر برقوق، وطالبوه باعادة القيصرى الى ولاية الحسبة أملا فى عودة الرخاء وانخفاض الأسعار ، فلم يكن من برقوق الا أن أجابهم الى طلبهم وأعاد اليهم القيصرى مرة أخرى (٣) ٠

كذلك شهدت مصر انتشار الوباء بها فى شهر ربيع الأول عام ٧٩٠ هـ (١٣٨٨ م) حيث « وقع بالقاهرة ومصر وضواحيها طاعون وحميات حادة « وألم الموت بعدد وافر

---

(١) المقريزى السلوك ج ٣ ق ٢ ص ٤٦٦ ،
السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢١٧ ٠
(٢) ابن داود الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ج ١ ص ٨٧ ـ ٨٨ ٠
(٣) أنظر : ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة ج ٥ ١٠٥ ـ ١٠٦ ٠

من سكان مصر (١) ، وقد انتشر هذا الطاعون أولا بثغر الاسكندرية منذ شهر ربيع الاخر عام ٧٨٨ هـ (١٣٨٦ م) « وبلغ عدة من يموت بها فى كل يوم زهاء مائة انسان » ، ومن الاسكندرية انتقل هذا الوباء الى القاهرة (٢) . ومما زاد من خطورة هذا الطاعون الذى كثرت الوفيات أثناءه ، حدوث الفتنة وانتشارها ، تلك الفتنة التى انتهت بعزل السلطان برقوق عام ٧٩١ هـ وسلطنة حاجى تلك السلطنة التى لم تستمر سوى عام ونصف فقط (٣) . وصاحب هذا الوباء قلة وانعدام وجود كثير من أصناف الفاكهة الموصوفة للمرضى مثل البطيخ والكمثرى ، مع ارتفاع أسعارها ، ويشير ابن داود الصيرفى الى أنه « عدم البطيخ الصيفى بسبب كثرة المرضى حتى أبيعت البطيخة بخمسة دراهم فضة، (٤) أما الكمثرى فأبيع الرطل منها بعشرة دراهم فضة .

أما الكمثرى فأبيع الرطل منها بعشرة دراهم فضة .

واستمر هذا الوباء منتشرا بالديار المصرية، حتى ارتفع عنها فى شهر جمادى الاخرة عام ٧٩١ هـ ، بعد أن توفى به عدد كبير من الأعيان والأمراء فضلا عن عامة المجتمع المصرى ، وقد أشار بعض المؤرخين الى أن غالبية وفيات

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٢ ص ٥٧٥ ـ ٥٧٨ ،
ابن داود الصيرفى : نزهة النفوس جـ ١ ص ١٦٨ ،
السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٢١٧ .

(٢) ابن داود الصيرفى : نزهة النفوس جـ ١ ص ١٣١

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٨٢ .

(٤) ابن داود الصيرفى : نزهة النفوس جـ ١ ص ١٧٠

عام ٧٩١ هـ كانت « بعلة الطاعون » (١) .

وعلى الرغم من أن السلطان برقوق استطاع التخلص من منافسيه فى الحكم وأحكم قبضته على السلطنة ، الاأنه أواخر حكمه شهدت الديار المصرية عدة اضطرابات اقتصادية صحبتها عدة أمراض وأوبئة أدت الى اضعاف الديار المصرية وتناقص عدد سكانها تناقصا ملحوظا ، وقد أشار الى ذلك أحد المؤرخين المعاصرين صراحة بقوله « ان أكثر البلاد خليت من سكانها وأغلقت دور كثيرة » (٢)

وقد تجمعت عدة عوامل لتزيد من حدة تلك الاضطرابات الاقتصادية خاصة منذ عام ٧٩٦ هـ / ١٣٩٤ م ، وأول تلك العوامل حركة النيل من زيادة ونقصان مما أدى الى تزعزع الأحوال الاقتصادية من ذلك ما حدث فى شهر شوال عام ٧٩٦ هـ من انخفاض منسوب مياه النيل ، مما أدى الى ارتفاع الأسعار ، فبلغ ثمن أردب القمح الى أربعين درهما ، أما الفول والشعير فبلغ ثمن الأردب منه عشرين درهما ، والبطة الدقيق ووزنها خمسون رطلا الى اثنى عشر

---

(١) **ابن داود الصيرفى** : نزهة النفوس جـ ١ ص ١٧٢ ـ ١٧٤ .

وقد عاد الوباء مرة أخرى الى الانتشار ـ ولكن بصورة أقل ـ **بالقاهرة حتى عام ٧٩٥ هـ** .

أنظر : ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة جـ ١ ص ١١٢ .

(٢) ابن داود الصيرفى : نزهة النفوس جـ ١ ص ٤٧٢

درهما (١) ، وقد دفع هذا الغلاء أهل القاهرة الى الثورة على المحتسب البهاء البرجى ومطالبته بتخفيض الأسعار . مما اضطر السلطان برقوق الى أن يصدر قرارا بفتح الخزائن وبيع القمح للأهالى بأسعار مخفضة ، مما أدى الى انحلال الأسعار ، غير أن توقف زيادة ماء النيل أدى الى « كثرة الخوف من القحط ، لكثرة ما شرق من الأراضى ولم يزرع » (٢) ، ونتيجة لتخوف الأهالى من القحط « صار الذى يريد اردبا يشترى له خمسة وبخلت أصحاب الغلال وطمعوا فى غلو السعر » مما أدى الى ارتفاع الأسعار ارتفاعا شديدا (٣) .

واستمر القحط منتشرا خلال العام التالى (٧٩٧ هـ / ١٣٩٥ م) وارتفعت الأسعار ، وبلغ سعر أردب القمح الى سبعين درهما والفول والشعير بأربعين درهما ، وحمل التبن بعشرة دراهم والخبز كل ثلاثة أرطال بدرهم ، والأرز كل قدح بدرهمين ، والسكر كل رطل بتسعة دراهم ، وزاد الحالة سوءا على قول المقريزى ـ وهو المؤرخ المعاصر لتلك المحنة ـ « كثرة ظلم الدولة ، ووقوع الوباء ، ووقوف أحوال الناس من قلة المكاسب» (٤) . واذا أضفنا هذه العوامل

---

(١) المقريزى : السلوك ص ٨١٦ ـ ٨١٨ ،
ابن داود الصيرفى : نزهة النفوس جـ ١ ص ٣٩١ .
(٢) المقريزى : السلوك ص ٨١٨ ،
ابن داود : نزهة النفوس جـ ١ ص ٨٩١ .
(٣) ابن داود الصيرفى : نزهة النفوس جـ ١ ص ٣٩١ .
(٤) المقريزى : السلوك ص ٨٢٦ ،
أنظر أيضا ابن داود الصيرفى : نزهة النفوس جـ ١ ص ٣٩٩ ، ٤١٤ .

التى أشار اليها المقريزى الى العامل السابق وهو قلة ماء النيل وانتشار القحط لأحطنا بصورة واضحة للحالة الاقتصادية والاجتماعية السيئة التى أضحى فيها المجتمع المصرى ٠

واستمرت الأسعار مرتفعة فى العام التالى ٧٩٨ هـ مما اضطر السلطان برقوق الى التفريج عن كربة الفقراء والمحتاجين من ذلك ما قام به من صناعة الخبز وتوزيعه على الفقراء ، مما خفف من وطأة هذا الغلاء ، ويشير المقريزى الى أنه « كفى الله الناس بهذا الخبز هما عظيما ، بحيث لم يعرف أن أحدا مات فى هذا الغلاء بالجوع ٠٠ »(١) ولم يكتف السلطان بالخبز بل صنع لهم طعاما يفرق فيه اللحم والمرق والخبز » (٢) ٠ ويبدو أن الحالة كانت سيئة للغاية على الرغم مما بذله السلطان من جهد كبير، فارتفعت الأسعار ، وفقد الخبز ولم يوجد فى الحوانيت ، وازدحم الناس على الأفران ، وفى نفس الوقت خرج شيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى الى الجامع الأزهر ، وأخذ يدعو لرفع الغلاء (٣) ٠

---

(١) المقريزى : السلوك ص ٨٥٣ ـ ٨٥٦ ٠

(٢) مما يذكر أن جملة ما فرقه السلطان برقوق فى مدة الغلاء فى كل يوم أربعين اردب قمح يصنع منها ثمانية آلاف رغيف ٠

أنظر : المقريزى: السلوك جـ ٣ ق ٢ ص ٩٤٣ ٠

(٣) المقريزى : السلوك ص ٨٥٧ ،

ابن داود : نزهة النفوس جـ ١ ص ٤٢٧ ٠

ومما يجدر ذكره أن السلطان برقوق كان يوزع الذهب على أهالى الديار المصرية أثناء اقامة هذه الصلوات ٠

أنظر : المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٢ ص ٩٤٣ ـ ٩٤٧ ٠

ولم تقف مجهودات السلطان برقوق من أجل رفع هـذه الطامة عن المجتمع المصرى عند هذا الحد ، بل ارسـل على الفور لجلب الغلال من خارج مصر ، وتصادف وصول عدة مراكب محملة بالغلال الى مصر ، ثانى يوم دعاء الشـيخ سراج الدين ، مما طيب نفوس أهالى مصر من جهة وأدى الى انخفاض الأسعار من جهة ثانية (١) ٠

غير أن تلك الاجراءات التى قام بها السلطان برقوق وما نتج عنه من انخفاض الأسعار لم ترض التجار والمحتكرين الذين خزنوا غلالا كثيرة من أجل الطمع فى بيعها بسعر مرتفع فاتحدوا جميعا وأزمعوا على حمل ما تحت أيديهم من غلال والسفر بها الى الاسـكندرية مظهرين أنهم سيصدرونها خارج مصر ، مما أدى الى تكالب الناس على شراء الغلال وتخزينها خوفا من عدم وجودها ، وأدى هذا بطبيعة الحال الى رفع ثمنها لدرجة كبيرة ، واضطربت أحوال النـاس اضطرابا شديدا ، وعدم وجود الخبز فى الأسواق ، لدرجة أن محتسب القاهرة شرف الدين محمـد بن الدماميني لم يستطع الخروج من داره على مدى ثلاثة أيام متتالية خوفا من بطش العامة به (٢) ، مما دفع السلطان برقوق الى عزله عن ولاية الحسبة وولى مكانه شمس الدين محمد المخانس

---

(١) وصل ثمن اردب القمح الى خمسين درهما ، والفول والشعير ثلاثين درهما ، والخبز أربعة أرطال بدرهم ٠
المقريزى : السلوك جـ ١ص ٨٥٩ ،
ابن داود : نزهة النفوس جـ ١ ص ٤٢٧ ، ٤٢٩
(٢) المقريزى : السلوك ص ٨٥٩ ،
ابن داود : نزهة النفوس جـ ١ ص ٤٣٠ ٠

غير أن أيام المخانسى لم تكن أحسن حالا من أيام سابقه فيشير المقريزى الى أنه « كانت أيامه شنعة » (١) ٠

وهكذا نجد أن ارتفاع الأسعار وقلة بل وعدم وجود السلع الغذائية لم يكن مرجعه انخفاض النيل وحدوث القحط فحسب بقدر ما يعود الى سوء تدبير القائمين بأمر البلاد والعباد ، ومما يؤكد هذ االرأى أنه فى العام التالى (عام ٧٩٩ هـ) الذى وفى فيه النيل وفاءا عظيما وارتوت كل أراضى مصر الزراعية ، الا أن الأسعار لم تنخفض واستمرت مرتفعة ، وذلك بسبب فساد الاشراف على الأسواق ورقابة الأسعار وهو ما يؤكد أن سبب الخلل الاقتصادى الذ ىأصاب الديار المصرية فى تلك الفترة انما يعود أساسا الى الانحلال الذى عم سائر أنحاء السلطنة المملوكية فى ذلك الوقت ٠

ولنأخذ مثلا واحدا من الأنظمة الاقتصادية التى كان معمولا بها فى مصر فى تلك الفترة ، والتى ترتبط ارتباطا وثيقا بصلب الاقتصاد وحالة الأسواق ، وهى الحسبة ، والمعروف أن المحتسب وفق أقوال الفقهاء والمشرعين هو الذى يقوم بمراعاة أحكام الشرع ، ويشرف على نظام الأسواق ، ويحو لدون بروز الحوانيت حتى لا تعوق حركة المرور ، ويكشف عن صحة الموازين والمكاييل ليمنع ما قد يحدث من غش فى البيع والشراء ، ويراقب وزن البضائع أو كيلها ونظافتها ونوعها وثمنها ، كذلك كان من حق المحتسب الاشراف على السقائين والكشف عن صحتهم

---

(١) المقريزى : السلوك ص ٨٥٩ ٠

ونظافة ملابسهم وقربهم ، وكذلك منع الناس من تحميل الدواب أكثر مما يحتمل والنهى عن ضرب الصبية ضربا مبرحا فى الكتاتيب (١) . ويشير السبكى الى أنه على المحتسب «النظر فى القوت وكشف غمة المسلمين فيما تدعو حاجتهم اليه من ذلك » (٢) ، أما العمرى فيشير الى أن من وظائفه أن « يتعرف الأسعار ، ويستعلم الأخبار فى كل سوق من غير اعلام لاهله ولا اشعار ، .. ومن وجدته قد غش مسلما أو أكل بباطل درهما أو أضر مشترى بزائد أو خرج من معهود العوائد ، شهره فى البلد » (٣) ، ومن أهم شروطها « أن يكون عفيفا عن أموال الناس ، متورعا عن قبول الهدية من المتعيشين وأرباب الصناعات فان ذلك رشوة وقد قال صلى الله عليه وسلم « لعن الله الراشى والمرتشى » (٤) .

غير أن هذه التعاليم والأوصاف النظرية كانت بعيدة عن التطبيق فى ذلك العصر ، وتفشى فى ذلك العصر ولاية منصب الحسبة ذاتها عن طريق الرشوة ، ومثال ذلك ما حدث فى التاسع من ربيع الأول عام ٧٩٩ هـ (١٣٩٦ م) عندما « استقر محمد بن البرجى فى حسبة القاهرة عوضا

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤١٤

(٢) السبكى : مبيد النقم ومعيد النعم ص ٩٢ .

(٣) العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

(٤) ابن الأخوة : معالم القربة فى أحكام الحسبة ص ١٣ ـ ١٤ .

عن ابن الدماميني بمال قام به ولم يل قط الا بمال » (١) ٠ ولم يكن منتظرا من ابن البرجي الذى غرم مبلغا كبيرا فى مقابل ولايته وظيفة الحسبة ، الا أن يعوض ذلك المبلغ عن طريق جمعه من التجار أو المحتكرين وأرباب الصناعات وغيرهم ، فى مقابل تغاضيه عن القيام بمهام وظيفته والاشراف على حال الاسواق والاسعار وحالة البضائع والسلع الغذائية مماأدى الى «ارتفاع الغلاءارتفاعا شديدا وتشاءم الناس بولايته » (٢) ٠ وحدث فى نفس العام أن عز على المخانسى وهو الذى كان يلى الحسبة من قبل انفراد ابن البرجي بولاية الحسبة ، وما تدره عليه من ربح طائل، فاستأجر جماعة من « أوباش العامة » وأجلسهم تحت القلعة فى انتظار خروج ابن البرجى « ورجموه بالحجارة حتى كاد يهلك » وهم يصيحون ويطالبون بعزله وتولية المخانسى مكانه فى حسبة القاهرد ، فاضطر السلطان برقوق الى تنفيذ مطالب العامةوعزل ابن البرجى عنولاية الحسبة وولى مكانه المخانسى (٢) ، وهكذا أصبحت وظيفة الحسبة مطمعا فى تكوين الثروات وعادت على البلاد بأسوأ الضرر على الرغم من أن هذه الوظيفة من الوظائف ذات الفائدة العظيمة للبلاد ـ وفق أقوال الفقهاء والمشرعين ٠

ومن ناحية أخرى ، فان حالة ابن البرجى لم تكن هى

---

(١) العينى : عقد الجما ن: ج ٢٥ ورقة ٤ (مخطوط) ،
المقريزى : السلوك ص ٨٧٢ ،
ابن داود : نزهة النفوس ج ١ ص ٤٤٠ ٠
(٢) المقريزى : السلوك ص ٨٧٢ ٠
(٣) المقريزى : السلوك ص ٨٧٥

الحالة الوحيدة التى تولى فيها أحـــد الأشخاص وظيفـة الحسبة عن طريق الرشوة ، فيشير المقريزى وهو معاصر لتلك الأحداث ، أن شعبان بن محمد الأثارى الذى عزل عن ولاية الحسبة فى شهر ذى القعدة عام ٨٠٠ هـ انما « كان قد ولى قبل ذلك بمال » (١) ومن الجدير بالذكر أن المقريزى تولى الحسبة أكثر من مرة زمن السلطان برقوق (٢) ٠

وزاد الحالة الاقتصادية اضطرابا ذلك الوباء الـــذى أخذ فى الانتشار منذ شهر ربيع عام ٨٠٠ هـ (١٣٩٧ م) بالوجه البحرى خاصة اقليمى الشرقية والغربية ، والذى انتقل بعد ذلك الى « القاهرة ومصر » ، كما وصـــل الى الصعيد (٣) ، وتوفى بهذا الوباء عـــدد كبير من أهـالى مصر (٤) ، لدرجة تعطلت معها مصالح البلاد ، ويشـير ابن داود الصيرفى الى أنه أخبره أحدالثقاة « أن أكثر البـــلاد خليت من سكانها وأغلقت دور كثيرة حتى كان الأحيـــاء ينقلون الأموات على الجمال ويرمونهم فى البحر وربمـــا يحفـرون حفيرة يدفنون فيها أكثر من عشرين نفسا » (٥) ، وذلك بالطبع لقلة الأيدى العاملة ٠

واذا أضفنا ما حل بالديار المصرية نتيجة هـــذا الوباء

---

(١) المصدر السابق جـ ٣ ق ٢ ص ٩٠١ ٠
(٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٤ ٠
(٣) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٢ ص ٨٩١ ،
ابن داود : نزهة النفوس جـ ١ ص ٤٧٢ ٠
(٤) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٢ ص ٨٩١ ـ ٨٩٢ ٠
(٥) ابن داود الصيرفى : نزهة النفوس : جـ ١ ص ٤٧٢

من قلة الأيدى العاملة ، الى بقية العوامل السابق الاشارة اليهـا والتى أدت الى الاضـــطرابات الاقتصـــادية زمن السلطان برقوق ، لأعطتنا صورد قاتمة عن أحوال المجتمع المصرى السلطان برقوق .

وعلى الرغم مما وصـــل اليه حال الديار المصرية من فوضى واضطراب اقتصادى زمن السلطان برقوق ، الا أنه وفق آراء أحد مؤرخى هذه الفقرة « أحسن حالا ممن جاء بعد ممن الملوك » (١) .

تدهور الأحوال الاقتصـادية وانتشار الأوبئـة فى عهـــد الناصر فرج :

وخلال عصر الناصر فرج بن الملك الظاهر برقوق (٨٠١ ـ ٨٠٨ هـ / ١٣٩٩ ـ ١٤٠٥ م) ابتليـت مصر بعـــدد من الأزمات الاقتصادية التى صاحبت المجـــاعات والأوبئة ، وكان بداية هذه الأزمة عقب وفاة الظاهر برقوق وفى الأيام الاولى من سلطنة الناصر فرج ، ويشير المقريزى شـــاهد عيان هذه الفترة أنه « لما مات الظاهر ـ برقوق ـ كان أعلى سعر : القمح كل أردب بخمسةوعشرين فمادونها ، والشعير كل اردب من خمسة عشر درهما الى مادون ذلك ، فأصبح فى يوم السبت التـــالى لدفن الملك الظاهر : كل اردب من القمح بأربعين درهما ، من غير سبب » (٢) .

ولكن اذا كان عمدة مؤرخى عصر المماليك وشاهد عيان هذه الفترة ـ وهو المقريزى ـ لم يفصـــح عن سبب زيادة

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٩٤ .
(٢) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ٩٨٢ .

الأسعار وتوهم أنها « من غير سبب » الا أننا نستطيع استخلاص أسباب ارتفاع الأسعار من الاحداث التى وقعت عقب وفاة برقوق ، فيجمع المؤرخون على ان الاختلاف وقع بين الأمراء والخاصكية مما أدى الى حدوث الشغب والاضطراب (١) ، ولا يخفى علينا ما تؤول اليه أحوال الأسعار خاصة أسعار المأكولات والمشروبات من ارتفاع شديد فى ظل تلك الظروف الصعبة ، وزاد الحالة سوءا انخفاض ماء النيل فى شهر صفر عام ٨٠٢ هـ (شهر توت) فازدادت الأسعار ارتفاعا ، وبلغ ثمن أردب القمح ستين درهما ، والشعير والفول خمسة وثلاثين درهما ، « وارتفع سعر غالب المأكولات » (٢) وأخذت الأسعار فى تزايدمستمر ففى شهر ربيع الأول من نفس العام (٨٠٢ هـ) بلغ سعر رطل اللحم الضأن درهمين ، ومن البقر درهم وثمن ، وثمن اردب القمح سبعين درهما ٠ (٣)

ولم يقتصر الأمر على هذا الغلاء فحسب ، فقد ابتليت الديار المصرية منذ أوائل شهر ربيع الأول الى آخر جمادى الآخرة عام ٨٠٢ هـ « بأمراض فاشية فى الناس من الحمى والبرد ، مات فيها عدة كبيرة ، مع توقف الأحوال ، وتعطل

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ٩٥٩ ـ ٩٨٢ ،
أبو المحاسن : النجوم جـ ١٢ ص ١٧٣ ـ ١٧٥ ، ١٨٠ ـ ١٨٢ ،
ابن داود : نزهة جـ ٢ ص ٤ ـ ٢٠

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ص ٩٨٢ ٠
(٣) المصدر السابق جـ ٣ ق ٣ ص ٩٩٣

المعايش ، وتزايد الأسعار فى كل ما يباع » (١) ٠

وعلى هذا النحو كانت مصر تمر فى بداية حكم الناصر فرج بمرحلة صعبة وخطيرة أولا : « لشدة اختلاف أهل الدولة » على حد تعبير المقريزى ٠ (٢) وثانيا : لنقص ماء النيل ٠ وثالثا : لما حدث من تفشى الأمراض والأوبئة وكثرة من مات من سكان مصر « وتوقف أحوال الناس ، وتعطل المعايش » ، ورابعا : لسوء ادارة البلاد ، فالمعروف أنه أهمل الاشراف على الاسواق والاسعار،بل تعدى الأمر الى أن « بذل أمراء دولته ـ أى دولة فرج بن برقوق ـ جهدهم فى ارتفاع الأسعار بخزنهم الغلال وبيعهم لها بالسعر الكثير » (٣) ٠

ونتيجة اضطراب الحالة الاقتصادية واستحكام الأزمة ضعفت شخصية المحتسب وتزعزع موقفه ، خاصة أثناء الارتفاع الشديد الأسعار ، ولسعى كثير من الأفراد لتولى وظيفة المحتسب ، لما سيعود عليهم من وراء هذا المنصب من ربح طائل ، والدليل على ذلك أنه تولى حسبة القاهرة (٤) ما بين شهر ذى الحجة عام ٨٠١ هـ وشعبان عام ٨٠٢هـ أى خلال تسعة أشهر ستة أشخاص هم بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد العيتابى المؤرخ المعروف بالعينى،

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٠٣ ٠

(٢) السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٠٣

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٣ ص ١٥٢

(٤) المعروف أنه تولى الحسبة فى الديار المصرية أربعة فى وقت واحد ، فكان للقاهرة محتسب وللفسطاط محتسب والوجه البحرى محتسب ، والاسكندرية محتسب ٠

وقد استقر فى حسبة القاهرة فى ذى الحجـــة عام ٨٠١ هـ عوضا عن تقى الدين أحمد بن على المقـــريزى (١) المؤرخ المشهور . ثم لم يلبث بدر الدين العينى أن عزل من حسبة القاهرة فى شهر المحرم عام ٨٠٢ هـ وتولى مكانه جمـــال الدين عمر الطنبدى ، الذى لم يلبـــث أن صرف عن ولاية الحسبة بعد شهرين من تاريخ توليته وأعيد بدرالدين العينى مرة أخرى فى حسبة القاهرة، الذى لم يستمر فيها هو الآخر أكثر من شهر واحد وعزل عنها فى شهر جمادى الأولىعام ٨٠٢ هـ وتولى أمرها تقى الدين المقريزى الذى عزل هـــو الآخر فى العاشر من شعبان من نفس العـــام وتولى مكانه جمال الدين محمد بن عمر بن على بن عرب « بمـــال وعد به » (٢) .

والنتيجة الأساسية لهذا الخلل الادارى وانتشار الرشوة كانت تقع على كاهل أهل مصر .

وزاد الأمر سوءا انخفاض منسوب النيل انخفاضا كبيرا فى نفس العام (عام ٨٠٢ هـ) ، ففى شهر رمضان انخفض ماء النيل « بحيث صار الرجل يخوض من بولاق الى البر الغربى » وعز وجود الماء « وكثر ازدحام الناس على شراء

---

(١)أبو المحاسن : المنهل الصافى جـ ١ ص ٣٩٥ ـ ٣٩٦

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ ق ٣ ص ٩٧٠ ، ٩٧٧ ، ٩٩٦ ، ٩٩٩ ، ١٠١٣ .

أنظر أيضا : العينى : عقد الجمـــان جـ ٢٥ ورقة ٢٤٥ (مخطوط) .

روايا الماء بالقاهرة وظواهرها ، حتى بلغت الراوية اربعة دراهم ، بعد درهم ونصف ، وعجز كثير من النـــاس عن شرائها ٠٠ وصارالناس يخرجون بأنفسهم وعبيدهموامائهم وغلمانهم فينقلون الماء من البحر الى دورهم على البغـال والحمير ، وفى الجـــرار وعلى الرؤوس ، وتزايد العطش بالناس ، واتفق مع ذلك شدة الحر المفرط ، وقدوم العسكر، فكان ذلك ما لم يعهد مثله » (١) وصحب هذا « كثرة حوادث الشغب والاضطراب بين أمراء المماليك بعضهم وبعض ٠٠ فأغلقت الأسواق واختطف الناس الخبز » (٢) ٠

وبالاضافة الى الأسباب الاربعة ـ سابقة الذكر ـ والتى أدت الى حدوث الاضطرابات الاقتصادية ، هنـــاك سبب خامس وهو التلاعب بالنقد ، والمعروف أن المعاملةبالدراهم والدنانير أخذت فى النقصان منذ أيام السلطان برقوق ،حتى كانت أيام الناصر فرج وبالتحديد منذ عام ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) فأبطلت المعاملة نهائيا بالدراهم والدنانير وأصبحت الفلوس هى العملة الوحيدة ، وارتفع ثمن الذهب ارتفاعا كبيرا (٣)

ونتيجة ارتفاع قيمـــة الذهب وانخفاض قيمة الفـــلوس ارتفعت الأسعار ارتفاعا كبيرا بحيث « لم يعهد بمثلهبمصر ، فبلغ القمح ـ عام ٨٠٥ هـ ـ الى سبعين درهما ، وزاد سعر الشعير على القمح ، وبلغ الفول الى تسعين درهمـــــا ٠٠ وارتفع سعر الثياب ، فبلغ الثوب القطن البعلبكى اربعمائة

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١٠٦ ٠
(٢) المصدر السابق جـ ٣ ق ٣ ص ١٠١٨
(٣) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٢٣٦ ،
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٣ ص ١٥٢ ٠

درهم ، بعدما كان بستين درهم ، والثوب القطن البطـــانة بمائة درهم بعد ثلاثين درهما ، والثوب الصوف المربع ألف وخمسمائة درهم بعـد ثلثمائة ، وسرى الغـــلاء فى كل ما يباع » (١) لدرجة أن قنطار الصـــابون وصل ثمنـــه الى سبعمائة درهم ٠ (٢)

وشهدت مصر خلال عام ٨٠٦ هـ (١٤٠٣ م) شدة عظمى نتيجة انخفاض ماء النيل ثم توقفه عن الزيادة (٣) ٠وتفصيل ذلك أنه فى شهر المحرم عام ٨٠٦ هـ (الموافق لشهر مسرى) توقف ماء النيل عن الزيادة ، فارتفع سعر الغلال حتى وصل ثمن اردب القمح الى مائة وعشرين درهما ، « وأمر الناس بالاستسقاء (٤) فى يوم الجمعة ثامن عشرينه ــ أى شـــهر المحرم ــ بالجوامع عقيب صلاة الجمعة ، فاستسقوا » ، غير أن ماء النيل استمر فى التوقف دون زيادة ، مما دفع شيخ الاسلام قاضى القضاة جلال الدين عبـد الرحمن بن البلقنى الى الخروج من داره ماشيا على قدميه واتجه الى الجـامع الأزهر فى جمع كبير ، حيث أخذيدعو ويتضرع لله عز وجل من قبل الظهر وحتى بعد صلاة العصر ، وقد امتلأ الجامـع الأزهر بعامة الناس ، ثم خرج القضاه وشـــيوخ الخوانك واتجهوا الى الجامع الأزهر ، وأخذوا فى الدعاء والتضرع حتى حل المساء ٠كل ذلك عسىأن يقبل الله عز وجل منهم هذا

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١١٠٠ ــ ١١٠١ ،
ابن داود : نزهة النفوس حـ ٢ ص ١٦٢ ٠
(٢) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١١٠٧ ،
ابن داود : نزهة النفوس حـ ٢ ص ١٥٨ ــ ١٥٩
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ١٢ ص ٧٠١
(٤) أى أداء صلاة الاستسقاء ٠

الدعاء ويزيد ماء النيل ، لأن أهل الديار المصرية فى ذلك الحين فهموا أن توقف ماء النيل ناتج عن غضب الله ولابد من استرضاء الله والدعاء له ليرفع عنهم هذا الغضب ٠ غير أن ماء النيل لم يزد على الرغم من كل هذه الدعوات ، مما دفع شيخ الاسلام جلال الدين الى التوجه بعد ذلك الى « رباط الاثار النبوية ، وحمل الآثار النبوية على رأسه ، واستسقى وأكثر من التضرع والدعاء » ، وحدث أن زاد ماء النيل فى اليوم التالى حتى بلغ ستة عشر ذراعا ، ففرح الناس فرحا شديدا (١) لكننا نعلم أنه فى عصر المماليك لم يعد وفاء النيل وبلوغه ستة عشر ذراعا كافيا لرى أراضى مصر الزراعية ، لذلك لم تروى كل الاراضى وشرق الصعيد بأكمله ، مما أدى الى ارتفاع الأسعار ارتفاعا كبيرا ، فوصل ثمن اردب القمح الى مائة وثمانين درهما والشعير الى مائة درهم ، ثم أخذت الأسعار فى الارتفاع التدريجى حتى وصل ثمن أردب القمح فى شهر ربيع من نفس العام الى مائتين وخمسين درهما (٢) ، واستمرت فى الزيادة فى الشهور التالية (٣) ٠

وصاحبت تلك الشدة الاقتصادية انتشار الأمراض والأوبئة بالديار المصرية ، ففى شهر جمادى الآخرة عام ٨٠٦ هـ هبت على مصر رياح مليئة بالرطوبة « فكان من شدة

---

(١) المقريزى : السلوك حـ ٣ ق ٣ ص ١١١٥ ٠
(٢) المقزيرى : السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١١١٦ ،
ابن داود : نزهة النفوس جـ ٢ ص ١٨٠ - ١٨١ ٠
(٣) ابن داود : نزهة النفوس جـ ٢ ص ١٨٤

رطوبتها تبل الثياب والأجسام » ، ونتج عن هـــذه الرياح انتشار السعال « بالقاهرة ومصر وضواحيها » ، « وتبـــع السعال حمى ، فكان الانسان يوعك نحو أسبوع ثم يبرأ » (١)

واذا كان هذا السعال لم يكن بالشـــدة التى تؤدى الى الوفاة ، فان الديار المصرية شهدت أيضا فى أواخر شـــهر جمادى الاخرة عام ٨٠٦ هـ برد شديد كان له نتيجة سيئـة خاصة مع ارتفاع الأسعار وغلاء المعيشة (٢) ، « فشنع الموت فى المساكين » ، « فكان يموت فى كل يوم بالجـوع والبرد عـــدد كثير ، وقام بمواراتهم الأمير ســـودون الماردينى ، والقاضى الأمير سعد الدين بن غراب الأســـتادار وغيره ، سوى من يجهز من وقف الطرحاء ٠٠ » (٣) ٠

ولم يكن منتظرا من المستغلين والمحتكرين سواء من التجار أو الأمراء أن تفلت منهم فرصـــة نقص ماء النيـــل وشراق الأرض وقلة المحصول من جهة وانتشار الأمراض والاوبئة من جهة أخرى ، فعمدوا الى تخزين الغلال لبيعها بسعر أكبر

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١١١٩ ٠

(٢) بلغ ثمن اردب القمح فى شهر جمادى الاخـــرة عام ٨٠٦ الى مائتين وســـتين درهم ، وفى شهر رجب من نفس العام وصل اردب القمح الى ثلاثمائة درهم والشـــعير الى مائتين درهم والفول الى مائتين درهم ، وفى شهر شعبان من نفس العام وصل ثمن اردب القمـــح الى أربعمـــائة درهم والشعير والفول بمائتين وخمسين درهما ٠

ابن داود الصيرفى : نزهة النفوس جـ ٢ ص ١٨٤ ــ ١٨٦

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١١١٩

ويشير ابن تغرى بردى الى أن أمراء دولة السلطان الناصر فرج بن برقوق بذلوا جهدهم « فى ارتفاع الأسعار بخزنهم الغـــلال وبيعها بالســـعر الكثير » ، (١) ونتج عن هـذه الاحتكارات ارتفاعا كبيرا للاسعار ، ففى شهر رجب من عام ٨٠٦ هـ « بلغ ثمن أردب القمح الى ثلثمائة وعشرين درهمـا والخبز كل ثمانى أواقى بدرهم ، وكل قدح من الشـــعير بدرهمين وكل أردب من الفـــول بمائتى وثمـانين درهم ، واشتد الحال بديار مصر » (٢) . وفى شهر ذى القعدة من نفس العام (٨٠٦ هـ) « ارتفعت أسعار عامة المبيعات ، فبلغ ثمن الرطل اللحم البقرى الى ثلاثة دراهم ، والرطل اللحم الضانى الى خمسة دراهم ، وقلت الأغنام ونحوها ، وأبيع عشر دجاجات ســـمان بألف وخمسين درهم ، وبيعت عشر دجاجات فى سوق الدجاج بخمسمائة درهم » ويؤكد تقى الدين المقريزى أنه أراد شراء دجاجتين ليأكلهما أثناء مرضه فقيل له أن ثمنهما يبلغ أربعة وسبعون درهما غير ربح من يشتريهما . (٣) .

وزاد الأمر ســوءا هبـــوب رياح الخماسين فى شهرى شوال وذى القعدة من نفس العـــام (٨٠٦ هـ) محمـــلة بالميكروبات والناقلة للامراض ، وقد وصفها المقريزى بقوله « كانت عاصفة ذات سموم وحر شـديد ، مع غيم مطبق ،

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٣ ص ١٥٢

(٢) المقريزى : السلوك حـ ٣ ق ٣ ص ١١٢٠ ،

ابن داود : نزهة النفوس جـ ٢ ص ١٨٤ ـ ١٨٥

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١١٢٤ .

ورعود ومطر قليل » . وقد أدت هذه الرياح الى انتشـــار الأمراض بالديار المصرية ، وكثر عدد الموتى خاصة بصعيد مصر (١) ومما يجدر ذكره أنه عز وجـــود الأدوية من كثرة طلبها ، وارتفعت ثمنها هى الأخرى .

وهكذا كانت سنة ٨٠٦ هـ (١٤٠٣م)من أصعب السنوات التى مرت على الديار المصرية الا أنها كانت على حـد قول تقى الدين المقريزى ـ المؤرخ المعاصر لهذه الأحداث ـ « هى أول سنى الحوادث والمحن التى خربت فيها ديار مصر وفنى معظم أهلها ، واختلت الأمور خللا آذن بدمار اقليم مصر »(٢)

واستمرت الأحوال الاقتصادية خاصة المالية منهـــا فى تدهور ملحوظ طيلة أعوام ٨٠٧هـ، ٨٠٨ هـ (١٤٠٤ ، ١٤٠٥، ١٤٠٦ م) وذلك نتيجة فساد العملة واستخدام الفلوس فى المعاملة بدلا من الذهب والفضة ، الذى ارتفع سعرها ارتفاعا كبيرا ، (٣) والى اختلاف الأمراء وتصارعهم على السلطة (٤)

---

(١) أحصى من مات فى مدينة قوص فبلغوا سبعة عشر ألف انسان ، ومن مات بمدينة أسيوط فبلغوا احد عشر ألف انسان ، ومن مات بمدينة هو وهى تتبع مركز نجع حمادى بصعيد مصر ، فبلغوا خمسة عشر ألف انســـان ، وذلك سوى الطرحاء .

أنظر المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١١٢٦ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١١٢٧ .

(٣) يشير المقريزى الى أن ارتفاع الذهب أدى الى ارتفاع أسعار المبيعات كما أدى الى ارتفاع أجور الأراضى وأجور الصناع وبالتالى أصبح من الصعب خفض الأسعار أو على حد قول المقريزى لا يرجىء الرخاء » .

(أنظر : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٢٧ ـ ٢٩)

(٤) ابن داود الصيرفى: نزهةالنفوس جـ٢ص١٩٦ـ٢٠٠

وانتشار الفساد والرشوة فى تولية مناصب الدولة خاصة منصب الحسبة (١) ، وأخذت الأسعار ترتفع تارة وتنخفض أخرى ، ووقعت النتائج كلها على كاهل الشعب المصرى خاصة الفلاحين والأجراء الضعفاء ، ويشير المقريزى الى أن أهالى الصعيد « بادوا موتا بالجوع والبرد ، وباعوا أولادهم بأبخس الأثمان ، فاسترق منهم بالقاهرة خلائق ، ونقل منهم الى البلاد الشامية مالا يعد ، فبيعوا فى أقطار الارض كما يباع السبى » (٢) . ولم يكن أهالى الوجه البحرى أسعد حالا من أهالى الصعيد ، فقد اشتد الغلاء بالوجه البحرى ، فبلغ القدح من القمح اربعين درهما ، ومن الشعير ثلاثين درهما والخبز الرطل بعشرة دراهم « وتزايد الموتان فى الفقراء » (٣) .

وبالاضافة الى ما شهدته الديارالمصرية من حالة اقتصادية سيئة فى هذه السنوات ، فانها ابتليت أيضا بكثير من الأمراض الحادة ، لدرجة عز معها وجود كثير من الأدوية ، وقد تفشى الطاعون بصعيد مصر فى شهر ذى الحجة عام ٨٠٨ هـ ، وتوفى أثناءه عدد كبير من الأمراء وعامة المجتمع

(١) مما يجدر ذكره أنه تولى وظيفة الحسبة (عام ٨٠٨ هـ) ـ حسبة مصر ـ شرف الدين محمد بن على الجيزى وهو أحد باعة السكر « بمال قام به ، فكان هذا من أشنع القبائح وأقبح الشناعات » على قول المقريزى ، كما علق قاضى القضاه بدر الدين العينى على هذه الحادثة بقوله « وهذه مصيبة لم تتكيف » .

أنظر : السلوك حـ ٤ ق ١ ص ١١ ، عقد الجمان جـ ٢٥ورقة ٢٣٥ (مخطوط) ، نزهة النفوس جـ ٢ ص ٢١٦ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١١٣٥ .

(٣) المصدر السابق جـ ٣ ق ٣ ص ١١٤٥ .

المصرى « حتى شمل الخراب غالب بلاد الصـــعيد » (١) ، « وقد أحصى من مات فى سيوط ممن له ذكـر فكانوا عشرة آلاف ، سوى من لم يفطن له ، وهم كثير ، وأحصى من مات فى بوتيج فبلغوا ثلاثة الاف وخمسمائة » (٢) ٠

واذا كان هذا الطاعون قد خفت حدته فى شهر ربيـــع الأول من نفس العام الا أنه ما لبث أن عاد مرة أخرى فى شهر شوال من العام التالى (٨٠٩ هـ) ولكنه فى هذه المرة انتشر فى كل أنحاء مصر ، وتزايد عدد الوفيات فيه ، ويذكر كثير من المؤرخين أن عدد من مات فى اليـــوم الواحد فى مختلف أنحـــاء الديار المصرية زاد على ألف وخمســـمائة نسمة فى اليوم ٠ (٣)

وثمة ملاحظة يجب الالتفات اليهـا وهى أن ما أصـاب الديار المصرية عصر الناصر فرج بن برقوق من محن وأزمات اقتصادية تمثلت فى ارتفاع الأسعار ارتفاعا كبيرا لدرجة أدت الى وفاة كثير من الأفراد جوعا ، انمـــا يرجعه بعض المؤرخين الى شخصية الناصر فرج وسياسته فى الحكم ، وقد اعتبر هؤلاء المؤرخون الناصر فرج «أشأم ملوك الاسلام، فانه خرب بسوء تدبيره جميع أراضى مصر وبلاد الشام ٠٠»(٤) والواقع أن هذا الرأى يصدق الى حد كبير ، فبالاضافة الى ضعف شخصية النـاصر فرج ، تواترت الفتن منـــذ ولايته

---

(١) أبو المحاسن : النجوم جـ ١٣ ص ٥٢ ٠
(٢) اقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ١٩ ــ ٢٠ ٠
(٣) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٤٢ ــ ٤٣ ٠
(٤) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٣٢٥ ،
أبو المحاس : النجوم الزاهرة جـ ١٣ ص ١٥١ ٠

الحكم وحتى مقتله (١) ، وهى الفتن التى أدت الى اضطراب الأحوال الاقتصادية وتعطل أحوال الناس » (٢) ، كذلك لم يستطع الناصر السيطرة على امرائه الذين بذلوا جهدهم فى رفع الأسعار « بخزنهم الغلال وبيعها بالسعر الكبير ثم زيادة أجرة أطيان أراضى مصر ٠٠ (٣) كذلك فان عدم ثبات أسعار الذهب والفضة والتلاعب بأسعار العملات أدى الى « تعطل أحوال الناس وقفلوا حوانيتهم » (٤) ٠ بالاضافة الى كثرة نفقات الناصر وهى التى كان يجبيها من « دماء أهل مصر ومهجهم » (٥) ٠ واذا أضفنا الى كل هذا ما كان يحدث عقب انخفاض النيل فى بعض السنوات ، وما يتبعه من قلة

---

(١) العينى : السيف المهند فى تاريخ الملك المؤيد ورقة ١٩٢ (مخطوط) ٠

(٢) ومما يذكر أن الناصر فرج اختفى سبعين يوما ، قضاها « فى لهو وطرب وأكل وشرب وبسط وانشراح » فى حين عهد الأمراء الى أخيه المنصور عبد العزيز بأمر السلطنة واجتمع حول عبد العزيز عدد كبير من المماليك والأمراء ، مما أدى الى حدوث عدة اضطرابات وفتن عندما عاد الناصر فرج الى السلطنة مرة أخرى وأخذ يتعقب أمراء ومماليك أخيه عبد العزيز بالقتل (أنظر تفاصيل ذلك فى نزهة النفوس جـ ٢ ص ٢١٢ ـ ٢١٧) ٠

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٣٢٥ ـ ٣٢٨ ٠

(٤) ابن داود الصيرفى :نزهة النفوس جـ ٢ ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ ٠

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٣ ص ١٥٢ ٠

المحصولات ، ثم ما كان يصيب الديار المصرية من حين الى آخر من أوبئة وأمراض ، وكثرة عدد الأموات أثناء تلك المحن لدرجة أن أحد المؤرخين أشار الى أنه « مات من أهل مصر فى الغـــلاء والوباء ـ زمن النـــاصر فرج نحـــو ثلثى الناس » (١) · لأصبح لدينا صورة قاتمة للحياة داخل مصر خلال عصر الناصر فرج ·

الأزمات الاقتصادية والأوبئة زمن السلطان المؤيد شيخ :

ولم تكن أيام السلطان المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى الظاهرى (٨١٥ ـ ٨٢٤ هـ/ ١٤١٣ ـ ١٤٢١ م) ـ الذى ولى السلطان بعد الناصر فرج (٢) ـ بسعد حالا من يام ســلفه الناصر فرج ، فقد أصاب الطاعون الديار المصرية منـــذ أواخر شهر ذى الحجة عام ٨١٥ هـ ، وأخذت الحمى تنخر فى أبدان أهالى مصر « لا سيما الأطفـــال والشباب ، وازداد الوباء انتشارا فى بداية العـــام التالى (المحرم ـ صـــفر ٨١٦ هـ ـ (٣) ، وكثرت الوفيات « حتى تجاوز عدد من يرد

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٣ ص ١٥٢ ·

(٢) المعروف أن الخليفـــة المعتصم بالله هو الذى تولى أمر السلطنة عقب قتل السلطان الناصر فرج ، واستمر يلى أمر السلطنة حتى انتزعها منه المؤيد شيخ بعد خمسة أشهر·

أنظر تفاصيل ذلك فى :

ابن داود : نزهة النفوس جـ ٢ ص ٣١١ ـ ٣١٧ ،

العينى : السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد ورقة ١٩٢ (مخطوط) ·

(٣) ابن داود : نزهة النفوس جـ ٢ ص ٣٢٦ ·

الديوان من الأموات مائة وعشرين ، ٠٠ وعز وجود البطيخ الصيفى من كثرة ما يطلب للمرضى ، حتى بيعت نصف بطيخة بخمسمائة درهم ٠٠ (١) ٠ كذلك انتشر فى شهر رجب من نفس العام (٨١٦ هـ) « حميات ونزلات وسعال » ، غير أن هذه الأمراض الأخيـــرة لم تكن بالخطورة التى تحدث معهـــا وفيات (٢) ٠ ولم يلبث الوباء أن انتشر فى العـــام التـــالى (٨١٧ هـ / ١٤١٤م) فى بعض أقاليم الديار المصرية خاصة « كـــورة البهنسى » (٣) كذلك لم يلبث الطاعون أن انتشر بالديار المصرية منذ بداية شهر المحرم عام ٨١٨ (١٤١٥م) (٤) وتزايد فى شهر صفر « حيث كثر الموتان فى الناس بالقاهرة ومصر ، وزادت عدة من يرد اسمه الديوان على ثمانين فى كل يوم « واستمر حتى شهر ربيع الأول من نفس العـــام ، حيث ارتفع الوباء من القاهرة » (٥) ٠

ومما يذكر أن السلطان المؤيد شيخ بذل قصارى جهده فى بداية عهده من أجل تخفيض الأسعار ، والحد من ارتفاع

---

(١) المقريزى : السلوك حـ ٤ ق ١ ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ ٠

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٢٦٩ ٠

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٢٢٠

(٤) أبو المحاسن النجوم الزاهرة حـ ١٤ ص ٢٦

(٥) المقريزى: السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٣٠١ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٤ ص ٤٣ ٠

بعد زوال الطاعون من مصر ، ظهر فى بلاد الشام ، مما يدل على أن الطاعون انتقل عن طريق العدوى ٠

أثمان المبيعات (١) ، من ذلك أنه ضبط التعامل بالنقد وسك « دنانير مؤيديه » (٢) جديدة ، وعمل على تخفيض الأسعار خاصة أسعار الغلال (٣) فأرسل الطواشي مرجان الهندى الخازندار الى الوجه القبلى بمال كثير ليشترى منه القمح ويرسله الى القاهرة « توسعة على الناس » (٤) فرخصت الأسعار لدرجة أنه « صار كل خمسة أرادب من القمح بمثقال ذهب ، وهذا شيء لم نعهد مثله من قبل « على حد قول المقريزى (٥) ٠

ولكن على الرغم من هذه الجهود التى بذلها السلطان المؤيد شيخ فى تخفيض الأسعار فى السنوات الأولى من حكمه ، الا أنه ومنذ عام ٨١٨ هـ (١٤١٥ م) بدأت الأسعار فى الارتفاع حتى اشتدت اشتدادا كبيرا منذ شهر شوال وحتى شهر ذى القعدة عام ٨١٨ هـ (٦) ، ويرجع ذلك الى عدة أسباب ، فى مقدمتها نقص ماء النيل عن معدله ، وثانيها اتلاف الفئران لكثير من الغلال ، وثالثها ما أفسدته الجيوش السلطانية من الحاصلات الزراعية أثناء خروجها لردع الخارجين عن طاعة السلطان واخماد الفتن التى

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٤ ص ٤٠
(٢) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٣٠٤ ـ ٣٠٨ ،
ابن داود : نزهة النفوس جـ ٢ ص ٣٤٩ ٠
(٣) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٢٨٩ ،
ابن داود : نزهة النفوس حـ ٢ ص ٣٢٦
(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٤ ص ٤٠
(٥) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٢٨٩
(٦) ابن داود الصيرفى : نزهة النفوس جـ ٢ ص ٣٥٦ ٠

حدثت بالبحيرة (١) · ونتج عن هذا قلة الخبز والغلال بالقاهرة وارتفع ثمنه ارتفاعا كبيرا ، حيث « بلغ أردب القمح الى أربعمائة درهم ، والبطة الدقيق الىما فوق المائة، والأردب الشعير الى ما ئتين وخمسين ، والفول الى ثلثمائة ··وهذا شى لم يعهده أحد » على حد قول ابن داود الصيرفى (٢) ·

ونتيجة ارتفاع الأسعار بهذه الصورة وعدم وجود الخبز ثار العامة على هذه الأوضاع ، مما دفع محتسب القاهرة ـ الأمير التاج ـ الى اعتزال منصبه خوفا من بطش العامة به ، وتولى مكانهفى الحسبة شمس الدين الحلاوى،لكن الحلاوى عجز عن القيام بأمر وظيفة الحسبة ووقف حال البلد « أكثر مما كان فى أيام التاج،وصار الناس يتزاحمون على الأفران والطواحين ، حتى كان الخبز لا يراه انسان على دكان من الدكاكين، ونهبت الناس الأفران وشون القمح » (٣) · كذلك « مات عدد من النسوان فى الزحمة بالأفران » (٤) · مما دفع نائب الغيبة أن يصدر أمرا بأن يقف على كل فرن جماعة من المماليك السلطانية حفاظا على النظام · (٥) ·

وازاء هذه الغمة ، لم يكن هناك بد من اقامة صلاة الاستسقاء لرفع الضرر وجلب الماء « فخرج قاضى القضاة

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٣٣٠ ·

(٢) نزهة النفوس والأبدان : جـ ٢ ص ٣٥٧ ·

(٣) ابن داود : نزهة النفوس جـ ٢ ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧ ·

(٤) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٣٣١ ـ ٣٣٣

(٥) ابن داود الصيرفى : نزهة النفوس جـ ٢ ص ٣٥٧ ·

شيخ الاسلام جلال الدين أبو الفضـــل عبـــد الرحمن بن البلقينى ليستسقى بالنـــاس فى يوم الاثنيـــن ثامن عشره ـ شهر ذى القعدة عام ٨١٨ هـ ـ ومعه عالم لا يحصيهم الا خالقهم ، سبحانه وتعالى ، فسار من منزله ماشيا ، ومعه الأمير التاج ـ الذى عاد الى حسبة القاهرة بعـــد عجز الحلاوى ـ حتى خرج من باب النصر الى الترب ، فانطلقت الألسنة بكل سوء فى حق التـــاج ، ولم يبق الا أن يرجم ، فاختفى. ومضى شيخ الاسلام بالناس الىسفح الجبل ، قريبا من قبة النصر ، فضجوا ودعوا الله سبحانه وتعـــالى وهم قيام نحو ساعة،ثم انصرفوا ، فكان من المشاهد العظيمة »(١)

ومما يذكر أن السلطان المؤيد شيخ ، كان ببلاد الشـــام أثناء هذه الأزمة الأخيرة ، وعندما عاد الى الديار المصرية فى شهر ذى الحجة عام ٨١٨ هـ ، ووجد الحـــالة بالديار المصرية سيئة للغاية ، قام على وجه السرعة بتدبير الأمور لاستعادة الأمن والرخاء بها ، من ذلك أنه تولى أمر الحسبة بنفسه ونودى بالقاهرة بأن الســـلطان هو المحتسب وألا يتزاحم أحد على الأفران ولا يتعرض الى القمح ، ومن أراد أن يشترى فليشترى بالسعر المحدد (٢) ، وفى نفس الوقت شرع السلطان فى جلب الغلال من مختلف الأقاليم لحل أزمة الخبز بالقاهرة . (٣) .

ونتيجة اتخاذ هذه الأجـراءات « تيسر وجـــود الخبز بحوانيت الباعة فى أسواق القاهرة ـ فى شهر المحرم عام

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٣٣٤ .

(٢) ابن داود الصيرفى : نزهة النفوس جـ ٢ ص ٣٥٨ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٣٣٧ .

٨١٩ هـ - فتباشر الناس بذلك ، وابتهجوا برؤيته لبعد عهدهم برؤيته فى الحوانيت ، وأخذه من غير ازدحام » (١)

ولم يمض على ارتفاع هذه الغمة وهبوط الأسعار واطمئنان أهل مصر شهر واحد (٢) ، حتى أصيبت الديار المصرية بالطاعون ، وكان ذلك فى شهر ربيع الأول من عام ٨١٩ هـ(١٤١٦ م) ، حيث بدأ الطاعون فى الانتشار بأقاليم مصر ،بعد أن انتقل اليها عن طريق العدوى من بلاد الشام وبغداد (٣) ثم أخذ فى الانتشار تدريجيا فى الأقاليم المصرية وبدأ خطره يزداد فلم يأت شهر صفر (٨١٩هـ) « حتى تزايد موت الناس به » و « وتجاوز عدد من يرد اسمه الديوان من الأموات مائة نفس فى اليوم ، هذا سوى من يموت بالمارستان، وفى عدة مواضع خارج المدينة » (٥) ولم تقتصر الاصابة بالطاعون على مدينة القاهرة وحدها بل تعداها الى سائر

---

(١) المصدر السابق جـ ٤ ق ١ ص ٤٤٧ .

(٢) ابن داود : نزهة النفوس جـ ٢ ص ٣٦٨، ٣٩٩ - ٤٠٠

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٣٤٤

(٤) ويشير ابن داود الصيرفى الى أنه « وصلت الأخبار من طرابلس الشام انه كان فيها فناء عظيم حتى لم يبق الا القليل ، وكذلك كان فى بغداد حتى خلت الديار من سكانها وكذلك أيضا حصل بالشام فناء كبير ، والغالب من الأطفال»

نزهة النفوس جـ ٢ ص ٣٦٣ .

(٥) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .
ويشير ابن داود الى أنه وصل عدد من يتوفى كل يوم الى أربعمائة نفس . نزهة النفوس جـ ٢ ص ٣٦٣ .

أقاليم مصر ، فانتشر ببلاد الصعيد ، مثلمـــا كثر بالوجه البحرى ، وقد أشار تقى الدين المقريزى الى أن « معظم أهل مدينة هو ــ من المدن القديمة بنجع حمـــادى ــ من صعيد مصر ، قد ماتوا بالطاعون » (١) وعلى هـــذا النحو انتشر الطاعون بالديار المصرية انتشارا كبيرا ، وكثرت الوفيـات به لدرجـــة أفزعـــت الكثيرين « وتوهم كل أحـــد أن المـــوت آتيـــه عن قريب ، لسرعة مـــوت من يطعن » ، وفى نفس الوقت أخذ بعض الأمراء على عاتقهم مهمـــة تغسيل ودفن من يموت بالطاعون مثلما فعل الأمير بدرالدين الاستادار · (٢) ولم يلبث ذلك الطاعون أن أخذ فى الارتفاع عن الـديار المصرية وانحصر فقـــط فى مدينتى دميـــاط والاسكندرية ، ثم زال نهائيا (٣) ·

وبعد مرور ثلاثة أعوام عاد الطاعون للظهور مرة أخرى بالديار المصرية ، وكان ذلك فى شهر صـــفر عام ٨٢٢ هـ (١٤١٩ م) (٤) ، حيث « فشا الطاعون فى اقليمى الشرقية والغربية وجميع الوجه البحرى (٥) » ، وأخـــذت الأمراض تتزايد وكثرت الوفيات وازدادت خطورة الاصابة بالطاعون

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٣٤٩ ·

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٣٥١ ·

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٣٥١ ــ ٣٥٥ ،
ابن داود : نزهة النفوس جـ ٢ ص ٣٧٤ ·

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٤ ص ٧٧

(٥) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٤٨١ ·

لدرجة أن الفـرد الذى يصاب بالطـاعون كان يمـوت فى ساعته (١) ٠

وبلغت عدة من ورد الديوان من الأموات فى شهر ربيـع الأول ـ ٨٢٢ هـ ـ بمدينة بلبيس ألف انسان ، وبناحيـة بردين ـ قرية قديمـة من أعمـال الشرقية خمسمائة نفس وبناحية ديروط من أعمال الغربية ، ثلاثة آلاف انسان ، سوى بقية القرى » (٢) ٠

وبعد أن عجز الأطباء فى دفع هذا الوباء تنبه الكثيرين أن سبب هذا الوباء غضب الله سبحانه وتعالى على الديار المصرية نتيجة عصيانهم وانتشار الفساد بين أهليهم ، فتقرر الرجوع الى الله والى احكامه، وقام محتسب القاهرة الأمير صدر الدين « تتبع أماكن الفساد بنفسه ومعه والى القاهرة فأراق ألافا من جرار الخمر وكسرها ، ومنع النسـاء من النواح على الأموات ، ومنع من التظاهر بالحشيش ، وكف البغايا عن الوقوف لطلب الفاحشة فى الأسواق ومواضـع الريب ٠٠ » (٣) ٠

ومن ناحية أخرى نودى فى الناس أن يصوموا ثلاثة أيام آخرها يوم الخميس خامس عشر شهر ربيع الآخر عام ٨٢٢هـ، ويتطهروا ليخرجوا مع السلطان ، ليدعو الله برفع الوباء ٠

---

(١) يشير ابن داود الصيرفى الى أن هذا الطاعون انتشر كذلك ببلاد الفرنج ٠
نزهة النفوس جـ ٢ ص ٤٤٢ ٠
(٢) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٤٨٦ ٠
(٣) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٤٨٦ ،
ابن داود : نزهة النفوس جـ ٢ ص ٤٥٣ ٠

وما أن جاء صباح اليوم المحدد للمسير الى الصحراء لاقامة الدعاء ، حتى خرج العلماء والفقهاء ومشايخ الخـــوانك وصوفيتها ، ، وعامة الناس ما بين ماشى وراكب متجهين الى الصحراء ، بينما خرج السلطان عقب صـــلاة الصبح وهو مرتدى « لباسا من الصوف وعلى كتفه مئزر صوف مسـدل كهيئة الصوفية وعليه عمامة صغيرة جدا ، لها عذبة مرخاة من بين لحيته وكتفه الأيسر وهو فى تخشع وانكسار ، وفرسه بقماش ساذج ، ليس فيه ذهب ولا حرير » ٠ وبالقرب من قبة النصر ، تقابل الجمعان « فنزل الســـلطان عن فرســـه ، وقام على قدميـــه وعن يمينـــه وشـــماله القضـــاة والخليفة وأهل العلم ، ومن بين يديه وخلفـــه طوائف لا يحصيها الا خالقها ، فبسط يديه ـ أى السلطان ـ ودعا الله وهو يبكى وينتحب ، والجمـــع الغفـــير يراه ويشهده زمانا طويلا » ٠٠ ثم توجه السلطان بعد ذلك ومعه هذا الجمـــع الغفير الى تربة الملك الظاهر برقوق حيث كانت المطابخ قد نصبت من قبل بالحوش القبلى ، وأحضرت الأغنام والأبقار لذبحها وطبخها ، ونحر كثير من الأغنام والابقار ، ووزعها السلطان على الفقـــراء والجوامع والخـــوانك وبقيـــة الطوائف (١) ٠

ومن الجدير بالذكر أنه حضر هذا الدعاء شيخ الحـــديث

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٤٨٧ ـ ٤٨٩ ،

ابن داود : نزهة النفوس جـ ٢ ص ٤٥٥ ـ ٤٥٦ ،

Nuir : The Mameluke, P 135

النبوى أحمد بن حجر العسقلانى (١) ، وتلى على الحاضرين ما حدث زمن طاعون عمواس (٢) ، وهـــو الطاعون الذى انتشر ببلاد الشام عام ١٨ هـ (٦٣٩ م) ، وتوفى به جماعة من صحابة رسول الله (ص) منهم أبى عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل ، ويزيد بن أبى سفيان ، وروى ابن حجر ما حدث من أبى عبيدة بن الجراح الذى خطب فى الحاضرين أثناء انتشار هذا الطاعون : « أيها الناس ، ان هذا الوجع — الطاعون — رحمة بكم ، ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين

---

(١) هو الشيخ شهاب الدين أحمـد بن على الكنـــانى العسقلانى ، الشهير بابن حجر المصرى الشافعى، ولد بمصر القديمة عام ٧٧٥ هـ (١٣٧٣ م) وكان حاضر الذاكرة ، دخل الكتاب وله من العمر خمس سنوات ، ثم ســـافر الى مكة وجاور بها وهو فى سن الحادية عشر ، فسمع بها وتفقه فى العلوم الدينية والحديث ، حتى صار « حجة عارفا بالعوالى والنوازل » ومما يذكران ابن حجر هذا حضر مجلسا للسلطان المؤيد شيخ فروى بالمجلس ثلاثين حديثا مختلفة الأسانيد ، فدهش الســـلطان من حافظته ، فلـم يضن عليـــه بولاية البيرسيه ومشيختها ، وله مؤلفات عديدة فى الحديث والفقه والتراجم منها : فتح البارى فى شرح البخارى وهو كتـــاب كبير فى ثلاثة عشر مجلد ، وبلغ من أهمية هـــذا الكتاب أن أقيمت وليمة كبيرة بمناسبة ختمه ، ومن كتبه : أبناء الغمر أنباءالعمر وهويعتبر أهم مرجع لحوادث عصره ومنمؤلفاته أيضا كتاب : بذل الماعون فى فضل الطاعون ٠

(٢) عمواس بفتح الميم ، وقع فى زمن الخليفة عمـــر بن الخطاب ، وتوفى فيه حوالى خمسة وعشرون ألف نســـمة ، وسمى بذلك لأنه عم الناس جميعهم وتواسوا فيه ٠

أنظر ابن حجر : بذل الماعون فى فضل الطـــاعون : الخاتمة (مخطوط) ٠

قبلكم » وسأل الله أن يصيبه به ، فلم يلبث أن توفى مصابا به فخلفه معاذ بن جبل ودعا نفس دعاء أبى عبيده ، فلم يلبث أن توفى هو وابنه عبد الرحمن بالطاعون (١) ٠

ويعقد المؤرخ تقى الدين المقريزى وهو معاصرا لهـــذه الأحداث ، مقارنة طريفة بين ما فعله صحابة رسـول الله أثناء انتشار الطاعون بينهم ببلاد الشام ، ودعائهم الله أن يصيبهم به ، وبين ما فعله « أهل زمانه اليوم ، أى أهل الديار المصرية زمنه وأثناء حكم السلطان المؤيد شيخ ، من الدعاء والبكاء والنحيب من أجل رفع الطاعون (٢) ٠

ولنا وقفة قصيرة هنـا على مقـالة الفقيه ابن حجـر العسقلانى سابقة الذكر ، والمعروف أن ابن حجر كتب كتيبا عن الطاعون أسماه « بذل الماعون فى فضل الطاعون » (٣)، ومن الثابت أن ابن حجر شهد حدوث أكثر من طاعون بالديار المصرية أثناء فترة حياته بمصر وحتى وفاته (٢٨ ذى الحجة عام ٨٥٢ هـ) ٠ ولابن حجر رأى خاص فى الطاعون ضمنه كتابه ـ بذل الماعون » ، ويحسن بنا ونحن نتناول هذا البحث أن نستعرض آراء ابن حجر فى هذا الشأن ٠

لقد اعتبر ابن حجر الطاعون « وخز وعـذاب للكافرين ورحمة وشهادة للمؤمنين»، واستشهد بأحاديث نبوية كثيرة ليدلل بها على صحة هذا الرأى ومن هـذه الأحاديث قول

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٤٨٩ ـ ٤٩٠

(٢) السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٤٨٩ ـ ٤٩٠ ٠

(٣) يشير السخاوى الى أن أحمـد بن حجر انتهى من كتابة هذا الكتاب فى عام ٨٤٨ هـ ٠ (التبر المسبوك ص ٨٧)

الرسول (ص) « هذا الوجع رجس وعذاب » ، و « هـــذا رجز أهلك الله به بعض الأمم ، وقد بقى فى ارض منه شىء يجىء أحيانا ويذهب أحيانا » ، و « ان هذا الوجع رجز عذب به بعض الأمم قبلكم ، ثم بقى بعد فى الأرض فيـــذهب المرة ويأتى الاخرى »وقول رسول الله « أتانى جبريل عليه السلام بالحمى والطاعون ، فأمسكت بالحمى وأرسلت الطاعون الى الشام ، فالطاعون شهادة لأمتى ورحمـــة لهم ورجس على الكافرين » . واستشهد ابن حجـــر ببعض الطواعين التى أصابت القوم الكافرين ، من ذلك أنه عندما زاد طغيان بنى اسرائيل خيرهم داود بين ثلاث : اما القحط الشـــديد ، أو تسليط عدو عليهم لمدة شهرين ، أو أصابتهم بالطاعون لمدة ثلاثة أيام ، فقال بنو اسرائيل لداود : أنت نبينا فاختر لنا ، فقال أما الجوع فانه بلا فاضح لا صبر له ، وأما العدو فلا بقية معه ، ووقع اختيـــاره على الطاعون ، فتوفى من بنى اسرائيل اثر الاصابة بالطاعون فى اليـــوم الأول سبعين ألف نسمة ، فتضرع داود الى الله لرفع الطاعون . (١)

ويؤكد ابن حجر أن الطاعون شـــهادة للمسلمين برواية عدة أحاديث نبوية منها : « من قتل فى سبيل الله فهو شهيد ومن مات فى سبيل الله فهو شهيد ومن مات فى الطاعون فهو شهيد ومن مات فى البطن فهو شهيد والغريق شهيد » . ويرى ابن حجر انه لتحصيل الشـــهادة بالوفاة بالطاعون لا بد من شروط معينة وفقا لأقوال الرسول (ص) : أنه كان عذابا يبعثه الله على من يشا وجعله رحمة للمؤمنين ،

---

(١) ابن حجر العسقلانى : بذل الماعون (ورقة ٦ ــ ١٨ (مخطوط) .

فليس من رجل يقع الطاعون فيجلس فى بيته صابرا محتسبا يعلم أنه لا يصيبه الا ما كتب الله له الا كان له مثل أجـــر شهيد » (١) ٠

ومعنى هذا أن الحافظ ابن حجرالعسقلانى يدعو الى عدم الفرار من الطاعون ، لأن الطاعون قضاء وقدر من الله عز وجل ، والفرار من قضاء الله خروج عن طاعته ، فلا بد من الامتثال لقدر الله ، وتطبيقا لهذه الآراء ، يعتبر ما فعـــله السلطان المؤيد الشيخ منالخروج الى الصحراء عام ٨٢٢هـ وبصحبته فريق من العلماء يصاحبهم جمع كبير من الدهماء والعامة ، والدعاء والصلاة والبكاء والنحيب من أجل رفع الطاعون ، انما هو خروج عن قضاء الله٠ ومن ناحية أخرى فقد نهى ابن حجر من الخروج من البلد الذىيقع به الطاعون أو الدخول اليها ، مستشهدا بقول الرسول : « اذا كان ـأى الطاعون ـ بأرض لا تدخلوها واذا وقع بأرض وأنتم بهـــا فلا عليكم » (٢) ٠ وحقيقة الأمر أن هذا التحـــريم لمن الأمور الصحية الصحيحة ، وهو ما يقـع الآن من نظام العـــزل الصحى ، حتى لا يتفشى الوباء ٠

والواقع أن آراء ابن حجر هذه لقيت قبولا شديدا من قبل فريق كبير من علماء عصره ، من بينهم عمدة مؤرخى عصر

---

(١) ابن ابن حجـــر : بذل الماعـون ورقة ٩٤ ـ ١٠٢ (مخطوط) ٠

(١) ابن حجر : بذل الماعون : ورقـــة ١٣٠ الى ٢٠٣ (مخطوط) ٠

المماليك تقى الدين المقـريزى وكذلك ابن داود الصـــيرفى وغيرهم كثير (١) ٠

واذا عدنا الى أمر هذا الطاعون الذى انتشر عام ٨٢٢ نجد أنه بدأ فى التناقص ابتداء من شهر جمادى الآخرة من نفس العام أى بعد أن دام انتشاره خمسة أشهر وتوفى به عدد كبير من سكان مصر (٢) ٠

ولم تنقض على تلك السنوات الخوالى التى ذاق فيهـا أهل مصر الشدة الاقتصـــادية والمرض الفتـــاك ، وهى السنوات التى استمرت منذ عام ٨١٥ هـ وحتى عام ٨٢٢ هـ كما سبق أن أوضحنا ، حتى ابتلاهم الله بتوقف ماء النيل عن الزيادة فى النصف الثانى من شهر جمادى الآخرة عام ٨٢٣ هـ ، مما أدى الى اضـــطراب الأحوال الاقتصـــادية وارتفاع أسعار الغلال والمأكولات ، ومرة أخرى نودى فى النـــاس : « أن يتركوا العمـــل بمعاص الله ، وأن يلتزموا الخير » عسى أن يذهب الله عنهم سيئاتهم ويفـرج كربتهم ، ثم نودى أن يصوم أهل مصر ثلاثة أيام من أجل تطهير النفوس واستعدادا للخروج الى الصحراء لتأدية صلاة الاستسقاء ٠ وفى اليوم المحدد للخروج الى الصحراء ، خرج شيخ الاسلام

---

(١) عن رأى المقريزى وابن داود فى طاعون عام ٨٢٢هـ أنظر :
السلوك : جـ ٤ ق ١ ص ٤٩٠ ،
نزهة النفوس جـ ٢ ص ٤٥٦ ٠

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٤ ص ٨٠ ٠

جلال الدين البلقينى من منزله واتجه الى القرب من قبـــة النصر ، وفى هذا المكان كان الناس قد أقبلوا أفواجا من كل جهة ، وبعد شروق الشمس بساعتين وصل السلطان المؤيد شيخ « دون ركب ولا حاشية» ممتطيا فرسه، ومرتديا ملابس أهل الصوفية ، وجلس على الأرض وسط هذا الحشد الكبير من العلماء والمتصوفة والعامة « من غير بساط ولا سجادة»، ثم قام القاضى جلال الدين وصلى بالناس ركعتين وخطب فيهم خطبتين حثهم فيها على : « التوبة والاستغفار وأعمال البر وفعل الخير ، ودعا الله بأن يرفع عنهم هذه الغمة « بينما كان السلطان المؤيد شيخ يبكى وينتحب أثناء دعاء جلال الدين • وبعد انتهاء الصلاة ركب السلطان فرسه وسار متجها صوب قلعة الجبل والعامة محيطة به من كل جهة • (١) •

ويروى المقريزى الى أنه فى غد يوم الدعاء « نودى على النيل بزيادته اثنى عشر اصـــبعا ، بعدما رد النقص ، وهو قريب من سبع وعشرين اصبعا ، فتباشر الناس باســتجابة دعائهم ، ورجو رحمة الله » (٢) •

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٥٣١ ــ ٥٣٢ ،
أبو المحاسن : النوجم جـ ١٤ ص ٩٦ ــ ٩٧ ،
ابن داود : نزهة النفوس جـ ٢ ص ٤٧٥ ــ ٤٧٦ •
وانظر أيضا :

Muir : The Mameluke,p 136 .

(٢) المقريزى : السلوك حـ ٤ ق ١ ص ٥٣٢ ،
أبو المحاسن : النجوم جـ ١٤ ص ٩٨ •

الأزمات الاقتصادية والطاعون زمن الأشرف برسباى :

وفى أثنـــاء حكم السلطان الأشرف برســباى (٨٢٥ ـ ٨٤١ هـ / ١٤٢٢ ـ ١٤٣٧ م) للديار المصرية شهدت مصر عدة أزمات اقتصادية وأوبئةوأمراض ، كان أولها ما حدث عام ٨٢٥ هـ (١٤٢٢ م) عندما تفشى الوباء بالقاهرة والوجه البحرى واستمرت الأمراض والأوبئة فاشية بين الناس طيلة أعوام ٨٢٦ و ٨٢٧ ، ٨٢٨ هـ (١٤٢٣ ، ١٤٢٤ ، ١٤٢٥ م) خاصة بمدينتى دمياط وفارسكور (١) . ومما يجدر ذكره أن أسعار المبيعات خاصـة الغلال واللحوم كانت رخيصـة وفى متناول الجميع طيلة تلك السنوات ، حتى نهاية عام ٨٢٨ هـ بدأت أسعار الغلال فى الارتفاع (٢) ، وبالتحديد فى شـــهر ذى القعدة عام ٨٢٨ هـ أخذ ثمن القمح فى الزيادة ، ونتج عن هذا أن قل وجود الخبز فى الأسواق فى الشهر التالى (ذى الحجة عام ٨٢٨ هـ) مما أثار سخط عامة القـاهرة ، الذين ثاروا على محتسب القاهرة بدر الدين محمود العينتابى ـ المؤرخ المعروف باسم العينى ـ فخشى العينى على نفســه من بطش العامة به « وطلع الى القلعة وهو خائف من رجم

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ٢ ص ٦٢٩ ، ٦٦٧ ، ٦٨٩
ومما يجدر ذكره أن بلاد الشام شهدت أيضا انتشـار الطاعون فى تلك الأعوام .

(أنظر : ابن داود الصيرفى : نزهة النفوس جـ ٣ ص ٢٥ ـ ٢٦) .

(٢) ابن داود الصيرفى : نزهة النفوس جـ ٣ ص ٢٣ ـ ٢٤ ، ٧٠ ـ ٧١ .

العامة له ، وشكاهم الى السلطان ، وكان يختص به ويقرأ له فى الليـــل تواريخ الملوك ، ويترجمها له بالتركيـة ، فحنق السلطان وبعث طائفة من الأمراء الى باب زويلة ، فأخذوا على المارة أفواه السكك ليقبضوا على الناس ٠ ٠» (١)

والملاحظة الهامة التى استرعت انتباهنا هى أن الأسعار استمرت طيلة عهد برسباى بين ارتفاع وانخفـــاض دون استقرار وذلك كله يرجع الى عدة أسباب أولهـــا سياسة الاحتكار التى اتبعها السلطان برسباى وامراء دولته والتى أثرت كثيرا على أثمان المبيعات بالأسواق (٢) ٠

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ٢ ص ٦٩٨ ،

أبو المحاسن : النجوم جـ ١٤ ص ٢٨١ ـ ٢٨٢ ،

ابن داود : نزهة النفوس جـ ٣ ص ١٦٠ ٠

(٢) ومما يؤكد ارتفـاع الأسعار نتيجة احتكار برسباى للتجارة المحلية القاء الضوء على احداث بعض السـنوات التى ارتفعت فيهـا الاسـعار فيشير أحد معاصرى برسباى أنه فى عام ٨٣٢هـ «كان الربيع فى غاية ما يكون من الابتهاج، والخيول والبهائم يربعون فيه ، ومن العادة انحطـاط سعر الغلال فى مثل هذه الأيام « غير أن احتكار برسباى لبيـــع الغلال أدى الى ارتفاع ثمنها بحيث وصل سعر أردب القمح خمسمائة درهم ، والمعروف أن برسباى احتكر بيـع معظم السلع من ذلك أنه أصدر فى شهر ربيع الاخر عام ٨٣٢ هـ مرسوما « بأن لا يباع السكر الا للسلطان » ، كذلك احتكر السلطان بيع الكتان المجلوب من بلاد الصعيد وأصدر بذلك مرسوم فى شهر رجب عام ٨٣٢ هـ ، كما أنه احتكر بيـــع الغلال فى مختلف نواحى الديار المصرية واقتصر البيع على =

ويشير المقريزى - وهو شاهد عيان هذه الفترة - الى أن « الأمراء والأعيان شرهوا فى الفوائد وشاركوا من دونهم فى ادخار الغلال وغيرها من البضائع ، رجاء الفائدة، فعز وجود الغلال ، وارتفع سعرها ، وفقد الخبز من الأسواق أحيانا · وصارت ولاة الأمور مع ذلك بعيدة عن معرفة طرق المصالح ، فان غاية مقاصدهم انما هى أخذ المال على كل وجه أمكن أخذه،فلهذا أختلت الأحوال وضاعت المصالح»(١) ويرى ابن خلدون أن هذا الأسلوب انما هو « غلط عظيم وادخال الضرر على الرعايا » (٢) ·

وثانيها : ما كان يحدث فى بعض الأحيان من تلف المزروعات فى بعض نواحى الديار المصرية ، ومن أمثلة ذلك ما حدث فى شهر شوال عام ٨٣٢ هـ عندما أصيبت البلاد برياح حارة أفسدت جميع المحاصيل مما أدى الى قلة محصول القمح والشعير وأدى الى رفع سعرهما (٣) ·

« المتجر السلطانى » ، ولم تقف سياسة برسباى الاحتكارية عند هذا الحد ، بل وصل الى درجة أنه انتهز فرصة رخص الأسعار عام ٨٣٥ هـ وأصدر أمرا بأن لا يبيع أحد غلال الا للسلطان وقام بتخزينها ثم قام ببيعها بعد ذلك بسعر كبير · وبالطبع كان لهذه السياسة آثار سيئة على المجتمع المصرى ·

أنظر : ابن داود الصيرفى : نزهة النفوس جـ ٣ ص ١٥٥ ، ٢٣٩ ،

المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ٢ ص ٧٠٩ ، ٧٨٢ - ٧٨٣ ،

ابن خلدون : المقدمة ص ٢٨١ ، ٣٩٧ ·

(١) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ٢ ص ٧٠٩، ٧٨٢ - ٧٨٣

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٨١ ·

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ٢ ص ٨٠٥ ·

ومن ناحية أخرى كان لانخفاض منسوب النيل أثر كبير فى رفع أسعار الغلال ، وقد حدث فى شهر ذى القعدة عام ٨٣٢ هـ (شهر مسرى) عندما توقف ماء النيل أن « تكالب الناس على مشترى الغلة خوفا من الشراقى » (١) ٠

وثالثا : ما حدث فى تلك الأثناء من شدة ضرر المماليك الجلبان ـ الأجلاب ـ على البلاد ، وعدم مقدرة السلطان على ردعهم ، وقد زاد خطرهم أثناء الفتنة التى ثارت بين الأمير الكبير جارقطلو وبين الأجلاب (٢) ، وعندما لم يستطع السلطان برسباى الحد من سطوة المماليك الجلبان أصدر أوامره بمنع الناس من عمل الأعراس والولائم خوفا من هجوم المماليك على النسا واختطافهن وهن مجتمعات ، وهذا يبين الى أى حد وصلت عدم مقدرة السلطان برسباى على كف يد المماليك الجلبان عن الاعتداء على نساء أهالى البلاد الآمنين فما بالك بغلاتهم ومحصولاتهم وأسواقهم والتى صارت نهبا للمماليك الجلبان (٣) ٠ وزاد من الاضطرابات

---

(١) ومما يذكر أن السلطان الأشرف برسباى ركب على الفور وتوجه الى رباط الآثار النبوية ودعا الله تعالى من أجل زيادة ماء النيل ٠

أنظر : ابن داود : نزهة النفوس جـ ٣ ص ١٦٢ ـ ١٦٣٠

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٤ ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨ ٠

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ٢ ص ٨٠٥ ٠
ويشير أبو المحاسن الى أن السلطان برسباى كان « يكثر من الدعاء عليهم ـ أى المماليك الجلبان ـ سرا وجهرا » النجوم جـ ١٤ ص ٣٢٨ ٠

الناتجة عن فساد حال المماليك الجلبـــان وقوف طائفـــة السودان موقفا معاديا منهم ، فاقتتل الفريقان ـ الجلبـان والسودان ـ « وصاروا جمعين لكل جمع عصبة » (١) ٠

رابعا : ما حدث من انتشار الأمراض والأوبئـة بالديار المصرية ، من ذلك أن عام ٨٣٠ هـ (١٤٢٦م) أهر « والأمراض من النزلات والسعال والجدرى فاشية فى النـــاس ، بحيث لا يخلو بيت من عدة مرضى ، الا أنها سليمة العاقبـــة فى فى الغالب ، يزول بعد أسبوع(٢) »وفى العام التالى (٨٣١ هـ / ١٤٢٧ م) فشت الأمراض ببلاد الصعيد ، وكثرت الموتى خاصة بمدينة هو وبوتيج ومنشية أخميم وما حولها ٠٠(٣) ٠

ولم ينج الوجه البحرى هو الاخر من الاصابة بالأمراض ففشى به الطاعون عام ٨٣٣ هـ (١٤٢٩م) خاصـة باقليمى البحيرة والغربية وكذلك بالمحلة التى «أحصى منمات من أهلها فكان زيادة على خمسة آلاف انسان » (٤) ٠ ويبدو أن هذا الطاعون الذى وصـفه ابن تغرى بردى بأنه « هو الفنـــاء العظيم » (٥) ، آتى الى مصر نتيجة عدوى لأنه أصاب بلاد

---

(١) ابن داود : نزهة النفوس جـ ٣ ص ١٦٠ ٠
(٢) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ٢ ص ٧٣٨ ،
ابن داود : نزهة النفوس جـ ٣ ص ١٦٠ ٠
(٣) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ٢ ص ٧٧٩ ٠
(٤) أبو المحاسن : النجوم جـ ١٤ ص ٣٣٧ ،
المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ٢ ص ٨٢١ ،
ابن داود : نزهة النفوس جـ ٣ ص ١٨٢ ٠
(٥) ومن رأى أبى المحاسن أن هذا الطاعون كان أفظع من سائر الطواعين التى سبقته ما عدا طاعون عام ٧٤٩ هـ ٠
(النجوم حـ ١٥ ص ١٥٦) ٠

غزة والقدس وصفد ودمشق والامبراطورية البيزنطية فى العام السابق (٨٣٢ هـ) ثم انتقل الى مصر فى عام ٨٢٣هـ(١) حقيقة ان بلاد الصعيد كانت منتشرة بها الأمراض منذ عام ٨٣٠ هـ لكنها لم تكن على شكل وباء بل كانت كما وصفها المقريزى المؤرخ المعاصر « النزلات والسعال والجدرى بحيث لا يخلو بيت من عدة مرضى الا أنها سليمة العافية فى الغالب تزول بعد أسبوع » (٢) واستمر هذا الطاعون منتشرا بين الناس حتى كان شهر جمادى الأولى من نفس العام (٨٣٣هـ) فتزايد خطره لدرجة كبيرة (٣) ، بحيث كان الفرد الذى يصاب بالطاعون لا يلبث أكثر من ساعة ثم تذهب روحه ٠ وارتفع عدد الوفيات فى هذا الشهر لدرجة كبيرة ، كما أن أهالى مصر لم يجدوا الأدوية لمعالجة مرضاهم ، ولا بعض السلع الغذائية الخاصة بمداواة المرضى مثل السكر وبذر الرجلة ولا الفواكه التى يطلبها المصابين مثل البطيخ والكمثرى ، بالاضافة الى تعطل الأسواق نتيجة اشتداد هذا الوباء وارتفاع أثمان الثياب التى تكفن بها الأموات « لكثرة الطلب عليها » (٤) ٠ كما عز وجود النعوش التى تحمل عليها الموتى ، لذا كانت الموتى تحمل على الألواح والأقفاص والأيدى (٥) ٠ كما عجز الناس عن دفن موتاهم وذلك لكثرة

---

(١) أبو المحاسن : النجوم جـ ١٤ ص ٣٣٨ ،
ابن داود الصيرفى : نزهة النفوس حـ ٣ ص ١٧٩ ٠
(٢) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ٢ ص ٧٣٨ ٠
(٣) أبو المحاسن : النجوم جـ ١٤ ص ٣٣٨ ٠
(٤) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ٢ ص ٨٢١ ـ ٨٢٥ ،
أبو المحاسن : النجوم جـ ١٤ ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠ ٠
(٢) ابن داود : نزهة النفوس جـ ٣ ص ١٨٨ ـ ١٨٩ ٠
وقد ذكر ميور Muir أن عدد الوفيات خلال ثلاثة أشهر بلغ ثلثمائة ألف نسمة ٠

The : Memeluke, e P. I 47

أعداد من يموت كل يوم ، « وصاروا يبيتون بها فى المقابر والحفارون طول ليلتهم يحفرون ، وعملوا حفائر كبيرة تلقى فى الحفرة منها العدة الكثيرة من الأموات ، وأكلت الكلاب كثيرا من أطراف الأموات ... وصار النـــاس ليلهم كله يسعون فى طلب الغسال والحمالين والأكفـــان .. وترى نعـــوش الأموات فى الشوارع كأنهـــا قطارات الجمـــال لكثرتها » (١) وتوفى أثناء هذا الطاعون عدد كبير من سكان مصر من بينهم الخليفة العباسى المستعين بالله فى شـــهر جمادى الاخرة عام ٨٣٣هـ (٢) .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ٢ ص ٨٢٧ ـ ٨٢٨ ،

ابن داود : نزهة النفوس جـ ٣ ص ١٩٠

كذلك راجع ما ذكره أبو المحاسن من هول وفيات هـــذا العام (النجوم جـ ١٤ ص ٣٤٠ وما بعدها) .

(٢) أبو المحاسن : النجوم جـ ١٥ ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .

كما توفى أثناء هذا الطاعون عدد كبير من الأمراء وأبناء السلاطين فقد توفى محمد بن الســـلطان الأشرف برسباى ، ومحمد بن السلطان الناصر فرج والسلطان الصالح محمـــد ابن السلطان الظاهر ططر ، والســـلطان المظفر أحمـــد بن السلطان المؤيد شيخ والأمير الطواشى افتـــخار الدين ياقوت الأرغونى مقدم المماليك السلطانية والامير سيف الدين يشبك ابن عبد الله أخو السلطان الأشرف برسباى . (النجوم جـ ١٥ ص ١٥٦ ـ ١٥٩) .

وقد أشار ابن داود الصيرفى الى أنه فى شهر جمـــادى الأولى عام ٨٣٣ هـ أحصى « عدد الأموات التى صلى عليهـــا فوصلت الى ألفين ومائة » . (نزهة النفوس حـ ٣ ١٨٦ ـ ١٨٧)

ويقول ابن تغـــرى بردى - وكان معاصرا لهذا الوباء - « والذى رأيته أنا فى هذا الوباء أن بيوتا كثيـــرة خلت من سكانها مع كثرة عددهم ، وأن الاقطاع الواحد كان ينتقل فى مدة قليلة لثلاثة أجناد وأربعة وخمسة » (١)

ولم يقتصر أمر هذا الوباء على الادميين وحـــدهم ، بل تعداه الى الحيوانات فقد وجد فى شـــهر جمـــادى الأولى من هذا العام « بنيل مصر على كثير من السمك والتماسيح قد طفت على وجه الماء ميتة » بينما « وجد فى البـــرية ما بين السويس والقاهرةعدة كبيرة من الظباء والذئاب موتى»(٢) ٠

وعندما تزايد خطـــر الطاعون بهـــذه الصورة صـــدرت الأوامر فى شهر جمادى الأولى ٨٣٣ هـ « بأن يتوب الناس الى الله تعالى من معاصيهم ويخرجوا من المظالم » وأن يصوموا ثلاثة أيام ثم يخرجوا بعد ذلك الى الصـــحراء والدعاء برفع هذه الغمة ٠ ويبدوا أن الله عز وجل لم يتقبل هـــذا الدعاء فيشير مؤرخنا المعاصر تقى الدين المقـــريزى الى أنه عقب

---

(١) أبو المحاسن : النجوم جـ ١٤ ص ٣٣٩

وقد توفى أثناء هـــذا الطاعون عدد كبير من المـــاليك السلطانية بطباق القلعة ، ويشير أبو المحاســـن أن ازدياد فسادهمفى البلاد كان أحد الأسباب فى انتشـــار الطاعون فيهم ، خاصة وأن السلطان برســـباى كان يكثر « الدعاء عليهم سرا وجهرا » وذلك عندما زاد أزاهم وفسادهم وعظم عتوهم » ٠

(٢) أبو المحاسن : النجوم جـ ١٤ ص ٣٣٩ ،
ابن داود : نزهة النفوس جـ ٣ ص ١٨٦

انقضاء تلك الصلاة « تزايدة عدة الأموات عما كانت »(١) ، مما دفع السلطان برسباى الى اصدار أوامره فى الشهر التالى الى أحمد بن عدنان كاتب السر «بأن يجمع أربعين شريفا (٢) اسم كل شريف منهم « محمد » ، وفرق فيهم خمسة آلاف درهم وأجلسهم بالجامع الأزهر فقرؤا ما تيسر من القرآن الكريم بعد صلاة الجمعة ، ثم قاموا هم بالناس ، فدعوا الله تعالى ، وقد غص الناس بالجامع الأزهر فلم يزالوا يدعون الله حتى دخل وقت العصر ، فصعد الأربعون شريفا الى أعلى الجامع وأذنوا جميعا ، فصلوا مع الناس صلاة العصر وانفضوا » (٣)

ولم يحل الشهر التالى « رجب عام ٨٣٣ هـ » حتى أخذ الطاعون فى التناقص بعدما أفنى عدد كبير من أهالى الديار

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ٢ ص ٨٢٦ ـ ٨٢٧ .

انظر أيضا : ابن داود : نزهة النفوس جـ ٣ ص ١٨٤

(٢) من المعروف أن الدين الاسلامى قضى على التفرقة بين المسلمين سواء كانوا عرب أم عجم ، وأهملت تماما فكرة العصبية المتمثلة فى النسب والدم والمال ، غير أنه وبعد وفاة الرسول (ص) ظهر اتجاه نحو احترام أهل البيت ، ومن ثم وجد نوعا من شرف الانتماء عن طريق الدم الى الرسول، وهم أولئك الذين اطلق عليهم اسم « أهل البيت » ولقبوا بالأشراف .

(٣) أنظر : النجوم جـ ١٤ ص ٣٤٢ ،

ابن داود : نزهة النفوس جـ ٣ ص ١٩١

يبدو أن السطان برسباى قد تأثر بما كان سائد ببلاد المشرق الاسلامى ، فالمعروف أن عادة استخدام الاشراف فى هذه الظروف انما هى عادة بلاد المشرق .

المصرية (١) أما من لم يدركه الطاعون فقد تهيأ للاصابة به ، وطابت نفوسهم لذلك ، وتابوا وأنابوا ، ورجعوا عن أشياء كثيرة ، وصار غالب الشباب فى يد كل واحد منهم سبحة ليس له دأب الا التوجه للصلاة ، والصلاة على الأموات ، وأداء الصلاوات الخمس ، والبكاء والتوجه الى الله تعالى والتخشع » (٢) .

وبعد مرور ثمان سنوات من طاعون عام ٨٣٣ هـ ابتليت الديار المصرية بطاعون آخر ابتداء منذ شهر رمضان عام ٨٤١ هـ ، ويبدو أن هذا الطاعون جاء الى مصر عن طريق العدوى من بلاد الشام والعراق فقد كان متفشيا بتلك البلاد منذ عام ٨٤٠ هـ (٣) ولم تقتصر الاصابة بهذا الطاعون على بلدان مصر مثل الواحات والفيوم وبعض بلاد الصعيد وأجزاء من الحوف الشرقى ، بل انتشر داخل الدورالسلطانية « بين أولاد السلطان الذكور والاناث ، وفى حظاياه وجواريه وجوارى نسائه ، وفى الخدام والطواشيه ، وفى المماليك

---

(١) وقد ذكر بعض مؤرخى هذه الفترة احصائيات بعدد الوفيات فى هذا الطاعون ، منهم تقى الدين المقريزى الذى أشار الى أن عدد من توفى فى طاعون عام ٨٣٣ هـ حوالى مائة ألف انسان ، أما ابن تغرى بردى فيرى أن هذا العدد هو عدد من توفى بمصر والقاهرة فقط عدا بقية أقاليم الديار المصرية ،

(المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ٢ ص ٨٢٦ - ٨٣٠ ،
أبو المحاسن : النجوم جـ ١٤ ص ٣٤٧) .

(٢) أبو المحاسن : النجوم جـ ١٤ ص ٣٤١ - ٣٤٢ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ٢ ص ١٤٠ ،
أبو المحاسن : النجوم جـ ١٥ ص ٩٢ ،
ابن داود : نزهة النفوس جـ ٣ ص ٣٨٧ ، ٣٩٤ ، ٣٩٨ ،

السلطانية سكان الطباق بالقلعة (١) » ، كما أن السلطان برسباى أصيب هو الآخر بالطاعون فى يوم السبت السابع عشر من شهر رجب عام ٨٤١ هـ (٢) ٠

ويشير ابن داود الصيرفى الى أن السلطان برسباى عندما رأى اشتداد الاصابة بالطاعون سأل قضاة القضاء ومشايخ الاسلام والفقهاء عن الذنوب التى اذا ارتكبها المسلم أو غيره يعاقبه الله تعالى عن تلك الذنوب بمرض الطاعون ، فأجابه هؤلاء الفقهاء بأن « الزنا اذا فشا فى الناس سلط الله عليهم الطاعون ، وأن النساء تتزين ويتبهرجن ويمشين فى الطرقات مهتوكات لم يخف منهن غير رقعة وجههن وغالبهن سافرات الوجوه » فأشار السلطان برسباى « بمنع النساء من الخروج الى الأسواق مطلقا ظنا منه أن منعهن يرفع الطاعون ، وأمر القضاة ومشايخ الاسلام أن يحضروا من الغد مجلسه فاجتمعوا فى يوم الخميس رابع عشرينه (رمضان عام ٨٤١ هـ) واتفقوا على منع النساء من الخروج الى

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ٢ ص ١٠٦ ،
توفى أثناء هذا الطاعون من مماليك برسباى نحو الألف مملوك ، ومن أولاده الذين من حظاياه سبعة عشر ولدا ، ومن الطواشى الخدام ستون خصيا ، ومن الجوارى مائة وستون ٠ (نزهة النفوس جـ ٣ ص ٤١٣)

(٢) ابن داود : نزهة النفوس جـ ٣ ص ٨٤١ ٠
ولم تقتصر الاصابة بذلك الطاعون على الآدميين فقط بل تعدى الأمر الى الحيوانات ، فهلك كثيرا من الأبقار والغنم والدواب ، كما وصل الوباء الى سمك البحر حيث « وجد فى النيل سمك كثير طاف قد مات فى الطاعون »
(المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ٢ ص ١٠٤٦)

الطرقات ليلا ونهـــارا ، ونودى بذلك فى القـــاهرة ومصر وضواحيها بمنع جميع النساء بأسرهن من الخـــروج الى الطرقات ، وتهدد من خالف هذا النداء بالقتل ، وركب الأمير الحـــاجب والمحتسب والوالى والمشاعلى ينـــادى بذلك ٠٠ فامتنع النساء والعجائز والصبايا حتى الاماء ٠٠ » (١) ٠

ومن الجدير بالذكر أن الســـلطان الأشرف برســـباى وهو على فراش الموت ـ أثناء مرضه الأخير اثر الاصابة بالطاعون ـ عهد الى ولده العزيز جمال الدين أبى المحاسن يوســـف بالملك من بعده وجمع حوله القاضى ومقدم المماليك والمـــاليك وأخبرهم جميعا « أنه اشتراهم ورباهم ، وأنهم أفســـدوا فسادا كبيرا ، وأنه تغير من ذلك عليهم ، وما زال يدعو الله عليهم حتى هلك منهم من هلك فى طاعون سنة ثلاث وثلاثين (٨٣٣ هـ) ، **ثم انه اشترى بعدهم طوائف ورباهم ، فشرعو** أيضا فى الفساد ، كما فعل أولئك الهالكون بدعائه ، وانه قد وقع فيكم الطاعون ـ يقصـــد طاعون عام ٨٤١ هـ ـ فمات منكم من مات ، وقد عفوت عنكم ، وأنا ذاهب الى الله وتارك ولدى هـــذا هو وديعتى عندكم ، وقـــد استخلفته عليكم ، فاسمعوا له وأطيعوه » ٠ (٢)

الأوبئة والمجاعات زمن أبو سعيد جقمق :

وخلال حكم السلطان أبو سعيد جقمق (٨٤٢ ـ ٨٥٧ هـ / ١٤٣٨ ـ ١٤٥٣ م) تفشى بين أهالى الديار المصرية بعـــض الأمراض والأوبئة، ففى شهر ربيع الاخر عام ٨٤٢هـ انتشرت

---

(١) ابن داود : نزهة النفوس جـ ٣ ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥ ٠
(٢) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ٢ ص ١٠٤٥ ٠

الأمراض والحميات بين الناس ، ولكنهـــا لم تكن بالخطورة التى تؤدى الى الوفاة اذ كانت « عواقبها سليمة » كما وقـع فى نفس شهر شعبان وباء بالوجه البحـــرى ، كذلك اكتشر الطاعون بالقـاهرة فى شهر شـــوال من نفس العام ، وهو الطاعون الذى صاحبه زيادة عدد الوفيات خاصـــة بالوجه البحرى بين الأطفال والعبيد والاماء ، ويشير المقـريزى الى أنه توفى فى قرية واحدة من قرىالوجه البحرى « مائتا صغير من أولاد أهلها » (١) ٠

وفى أواخر عام ٨٤٧ هـ وأوائل عام ٨٤٨ هـ أصيبت الديار المصرية بالطاعون مرة أخرى زمن جقمق ، ومما يجدر ذكره أن أحمد بن حجر العسقلانى أصيب بالطاعون فى عام ٨٤٨هـ فقد أشار تلميذه السخاوى الى أنه قرأ بخط أستاذه أحمد بن حجر أنه ـ أى ابن حجر ـ « فى ليـــلة الاحد خامس صـــفر ـ ٨٤٨ هـ ـ وجدت وجعا تحت ابطى الأيمن ونقرة مؤلمة ، فنمت على ذلك ، فلما كان فى النهار زاد الألم قليـــلا ، وفى العاشر ـ من صفر ـ برزت تحت ابطى كالخوخة ، ثم أخذت فى الخفة قليلا قليلا الى العشر الأخير منه ـ صـــفر ـ فذهبت والحمد لله » (٢) ٠

ولم يلبث الطاعون أن ظهر مرة أخرى بالديار المصرية فى شهر ذى الحجة عام ٨٥٢ هـ وأخذ فى التزايد فى العام التالى ـ ٨٥٣ هـ ـ « ومات فيه جماعة كبيرة من الأمراء وأعيـــان

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٤ ق ٣ ص ١٠٩٨ ، ١١٠٩ ، ١١٢٦ ، ١١٢٧ ٠

(٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ٨٧ ٠

لاحظ هنا تطور أعراض الاصابة بالطاعون وفق وصـف أحد المصابين به ٠

الدولة (١) » ، ويشير السخاوى وهو معاصر لهذه الأحداث أنه « كانت « عدة من يموت فيه - أى طاعون عام ٨٥٣ هـ - كل يوم زيادة على الألف » (٢) .

ولم يقتصر الأمر على الاصابة بالطاعون ، فقد حدث فى نفس العام (٨٥٣ هـ) أن « توقف ماء النيل عن الزيادة ، بل تناقص تناقصا فاحشا ، فاضطربت الناس لذلك ، وتزايدت الأسعار ، الى أن أبيع الاردب القمح بأربعمائة درهم » (٣) . واستمرت الاسعار فى الارتفاع حتى وصلت فى نهاية عام ٨٥٣ هـ الى درجة كبيرة حتى أصبح « الناس فى جهد وبلاء من غلاء الأسعار » (٤) ، ويشير ابن تغرى بردى الى أن هذا العام هو عام « الشراقى العظيم بمصر ، والغلاء المفرط المتداول الى سنة سبع وخمسين » (٥) .

وعندما وصلت حالة الديار المصرية الى درجة كبيرة من

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٥ ص ٣٨٧ - ٣٨٩ ، ص ٥٣٥ .
السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٧١ ، ٢٩٨ .
(٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٥٤ .
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٥ ص ٣٩٦ ،
السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .
(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٥ ص ٤٠٥ ، ٤٢٣ ،
حوادث الأيام والدهور جـ ١ ق ١ ورقة ١٢٠ ،
السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٦١
(٥) أبو المحاسن : النجوم جـ ١٥ ص ٥٤٧

السوء نتيجة توقف ماء النيل عن الزيادة ، أمـر السلطان الظاهر جقمق فى يوم الأحـد الموافق ١٤ رجب عام ٨٥٤ هـ الشيخ على المحتسب بأن يطوف فى شوارع القاهرة ، ينادى فى أهالى القاهرة بأن يخرجوا فى الغد الى الصحراء لأداء صلاة الاستسقاء والدعاء من أجل زيادة ماء النيل · وفى اليوم التالى « خرج قاضى القضاة شرف الدين يحيى المناوى الى الصحراء ماشيا بين جمع كبير من الفقهاء والفقراء الى أن توقف بين تربة الملك الظاهر برقوق وقبة النصر ، قريبا من الجبل ، ونصب له هناك منبر ، وحضر الخليفـة وبقيـة القضاة ، كما خرجت اليهود والنصارى بكتبهم ، واجتمع هذا الجمع الكبير ، وقام بالصـلاة قاضى القضـاة حيث صلى بالناس ركعتين « ودعا الله سبحانه وتعالى باجراء النيل(١)، وأمن الناس على دعائه ، وعظم ضجيج الخلائق من البـكاء والنحيب والتضرع الى الله تعالى ، ودام ذلك بعـد طلوع الشمس الى آخر الساعة الثانية من النهـار المذكور ، ثم انصرفوا على ما هم عليه من الدعاء والابتهـال الى الله تعالى · فكان هذا اليوم من الأيام التى لم نعهد بهثلها » (٢) ·

---

(١) يشير السخاوى الى أن صيغة الدعـاء التى كانت تتلى فى هذه المناسبات هى :

« الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين لا اله ا لا الله ، يفعل ما يريد ، اللهم أنت الله لا اله الا أنت الغنى ، ونحن الفقراء أنزل علينا الغيث واجعل ما أنزلت لنا من قوة وبلاغا الى حين ، اللهم أسق عبادك وبهائمك ، وانشر رحمتك وأحيى بلدك الميت » ص ٣١١ ·

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ١٥ ص ٤٢٤

ويبدو أن هذه الصلاة لم تؤد الى زيادة ماء النيل ، الأمر الذى دعا الى الخروج مرة أخرى الى الصحراء لأداء صلاة استسقاء أخرى (١) ، وهذا ما حدث بعد مضى ثلاثة أيام من الصلاة السابقة ، حيث خرج الخليفة والقضاة الأربعة لأداء صلاة الاستسقاء بنفس المكان السابق الذكر فى يوم الخميس ثامن عشر رجب عام ٨٥٤ هـ ، كذلك خرج هذا الجمع فى اليوم التالى (٢) ٠

وعلى الرغم من كل هذه الصلاوات استمر نقصان ماء النيل ، مما أدى الى زيادة الجدب وما تبعه من قلة المحاصيل والغلال وارتفاع أسعارها لدرجة أن ثمن أردب القمح وصل الى « ألفى درهم » ، وهذا هو « الشراق الكبير » على حد قول ابن تغرى بردى (٣) ٠

كذلك حدث فى أواخر أيام السلطان جقمق وبالتحديد فى عام ٨٥٥ هـ (١٤٥١ م) أن تزايد الغلاء « حتى خرج عن الحد وبيع القمح بنحو ألف وخمسمائة درهم الأردب ، والفول والشعير بألف درهم الأردب » (٤) ، وقد حاول السلطان جقمق التخفيف على أهالى الديار المصرية ، فأصدر أمرا بأن يباع القمح من شونته الخاصة بألف درهم للأردب !! « فسر الناس به ودعوا له ، وتبعه فى هذا السعر أكثر الناس ،بحيث

---

(١) السخاوى : التبر المسبوك ص ٣١٢ - ٣١٣ ٠
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٥ ص ٤٢٥ ، السخاوى : التبر المسبوك ص ٣١٣
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٥ ص ٥٤٧ ٠
(٤) المصدر السابق جـ ١٦ ص ١

كان ذلك ابتداء انحطاط السعر » (١) . فلم تلبث الأسعار أن انخفضت بالتدريج حتى جاء العام التالى (٨٥٦هـ) والأسعار فى متناول الجميع ، مما أدى الى استقرار الأمور بقية أيام السلطان جقمق .

اضطراب الأحوال الاقتصادية أواخر عصر سلاطين المماليك:

سبق أن أشرنا فى الصفحات الأولى من هـــذا البحث أن ثورات المماليك الجلبـــان على أمرائهم وما فعلوه من نهب وسلب أهالى الديار المصرية انما كان سببا قويا فى حدوث الغلاء والمجاعات ، فقد ازداد أعداد هؤلاء المماليك الجلبان أواخر عصر سلاطين المماليك وبالتحديد منذ النصف الثانى من القرن الخامس عشر للميلاد ـ التاسع الهجرى ـ فبعد أن اعتاد سلاطين المماليك الأوائل شراء مماليكهم أطفـــالا صغارا يتعهدونهم بالتربية والنشأة الخاصة ، حيث يشب المملوك وقد اختص بولائه لأستاذه الذى اشتراه وقام بتربيته، اذ بسلاطين المماليك الأواخر ، يشترون مماليكهم كبارا فى سن البلوغ ، وهم الذين أطلق عليهم لفظ الجلبان أو الأجلاب . ولم يكن هناك ثمة ولاء بين أولئك الجلبان وبين الســلاطين لدرجة أنه كثيرا ما ثار أولئك الجلبـــان على الســـلاطين وقاموا بعزلهم (٢) . وفى نفس الوقت عاث المماليك الجلبان فسادا فى أنحـــاء الديار المصرية ، مما أدى الى اضطراب الأحـــوال بهـــا خاصة الاقتصادية منها ، واشـــتداد الغلاء ، ويشير جمال الدين بن تغرى بردى وهو مؤرخ معاصر عاش فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى ـ التاسع

---

(١) السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٤٦ .

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ١٧٢ ـ ١٧٣

الهجرى ـ أنه فى عام ٨٦٠ هـ (١٤٥٥ م) قوى شأن المماليك الجلبان وهجموا على بيت الوزير فرج بن النحال ،وعندما لم يجدوا فيه مايشفى عطشهم تحولوا الى المنازل المجاورة لمنزل الوزير ونهبوها « بحيث انهم أخذوا غالب متاع الناس ، ولا قوة الا بالله» (١) ،وعلى هذا النحو « دخل فى قلوب الناس من المماليك الأجلاب من الرجيف والرعب أمر لا مزيد عليه »

ويبدو أن سلاطين المماليك لم يستطيعوا الحد من سطوة المماليك الجلبان ، ويدلنا على هذا أنه عندما أصدر السلطان الأشرف اينال العلائى (٨٥٧ ـ ٨٦٥هـ / ١٤٥٣ ـ ١٤٦٠ م) قراره بعدم تعرض المماليك الجلبان لأهالى الديار المصرية خاصاة الباعة والتجار ، كانت هذه القرارات « كضرب رباب أو كطنين ذباب » علىحد قولابن تغرى بردى (٢) واستمروا على ما هم عليه من أخذ أموال الناس والظلم٠وكانت النتيجة الأساسية لأفعال المماليك الجلبان هذه أن ارتفعت الاسعار « فى سائر الاشياء من المأكول والملبوس والغلال والعلوفات، وصاروا يخرجون الى ظواهر القاهرة ويأخذون مايجدون من الشعير والتبن والدريس بأبخس الأثمان ان اعطوا ثمنا ،وان شاءوا أخذوه بلا ثمن ، وكل من وقع له ذلك معهم لم يعد ثانية الى بيع ذلك الصنف الاأن يكون محتاجا لبيعه ، فعزت لذلك هذه الأصناف بحيث أنها صارت أقل وجودا من أيام

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ١٦ ص ٩٥ ٠
وانظر عن هذه الحادثة أيضا :
السخاوى : التبر المسبوك أحداث عام ٨٥٤ هـ
(٢) النجوم الزاهرة جـ ١٦ ص ٩٨ ٠

الغلاء فصار هذا هو الغلاء بعينه ، وزيادة على الغلاء عدم الشيء » (١)

ولم يكتف المماليك الجلبان بهذه الأفعال ، اذ تعدوها الى اشعال النيران فى المنازل والدور لينتهزوا فرصة الحريق ويقوموا بنهب تلك المنازل ، ونتج عن تلك الحرائق خراب كثير من المنازل وافتقار « خلائق كثيرة » ٠

كذلك لم تسلم النساء من اعتداء المماليك الجلبان ، فقد حدث فى شهر رمضان عام ٨٦٣ هـ (١٤٥٩ م) أن نهب المماليك « النسوة اللاتى حضرن لصلاة الجمعة بجامع عمرو ابن العاص بمصر القديمة ، وأفحشوا فى ذلك الى الغاية » ٠

وعلى هذا النحو كان للمماليك الجلبان واعتداءاتهم المتكررة على الأهالى أثر كبير على الأحوال الاقتصادية بالديار المصرية اذ تعطلت أحوال الناس ، وعم الغلاء سائر المبيعات ، بل ان المماليك الجلبان قاموا بتأليف عصابات للسرقة وملؤا شوارع القاهرة رعب وخطر ، لدرجة « أن الشخص صار لا يقدر على خروجه من داره بعد أذان عشاء الآخرة ، حتى ولا لصلاة الجماعة ، ولو كان جار المسجد ، وان أذن العشاء والشخص خارج عن داره هرول فى مشيه وأسرع لئلا تغلق عليه الدروب التى عمرتها رؤساء كل حارة ، خوفا على بيوتهم من المناسر والحرامية »

ويبدو أن ميل السلطان اينال وتحيزه لمماليكه الجلبان وعدم استطاعته فى نفس الوقت كمبح جماحهم أدى الى ازدياد خطر المماليك الجلبان ، كذلك لم يكن لوالى القاهرة

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ١٦ ص ٩٨ ٠

أى سلطان على المماليك الجلبان ، ويتضح هـذا من دفاع والى القاهرة عن نفسه أمام السلطان عندما ازدادت شكاوا الناس من أخطار المماليك الجلبان فرد قائلا : « يا مولانا السلطان أنا مالى شـغل ولا حـكم على من يلبس طاقية - يعنى المماليك - وما حكمى الا على العوام والحرامية » ، وازاء هذا الوضع « انحل النظام وضاعت حقوق الناس » · ويحمل بعض المؤرخين تبعية ضياع حقوق النـاس وازدياد خطر المماليك الجلبان على السلطان الأشرف اينال ، الذى لم يحاول الحد من نفوذ وسطوة مماليكه الجلبان ·

واذا كان السلطان الأشرف اينال لم يحاول الحد من نفوذ وسطوة مماليكه الجلبـان ، فان اصابتهم بالطـاعون كانت كفيلة بأن تكسر شوكتهم وتحد من ازدياد خطرهم من جهة ، وتؤدى الى استقرار الأحوال الاقتصادية من جهة أخرى ·

وتفصيل ذلك أن الطاعون كان متفشيا ببلاد الشام منـذ عام ٨٦٣ هـ (١٤٥٨ م) ثم زحف هذا الوباء الى غزة فى شهر المحرم عام ٨٦٤ هـ حيث « أباد الموت أهلها » ومن غزة انتشر الوباء داخل الديار المصرية ، ففى بداية شهر ربيـع الآخر عام ٨٦٤ هـ ظهر الطاعون بمـدينة بلبيس وخانقـاه سرياقوس من ضواحى القاهرة ، ثم لم لبيث أن امتـد الى القاهرة نفسها ،وبدأ عدد ضحاياه فى الازدياد ·

وعلى هذا النحو ابتليت الديار المصرية بالطاعون وأصبحت على حد تعبير ابن تغرى بردى « بين ثلاثة أمـور عظيمة : الطاعون ، الغلاء ، والظلم (١) » ·

---

(١) نحن أشرنا سابقا من أن المماليك الجلبان ظلموا أهالى مصر ونهبوا وأحرقوا منازلهم وتبع ذلك وقوع الغلاء ، ومما يذكر أن أسعار عام ٨٦٤هـ كانت مرتفعة جدا ، فقد بيع اردب=

وفى البداية انتهز المماليك الجلبـــان فرصة انتشـــار الطاعون وكثرة الوفيات ، وأخـــذوا فى الاســـتيلاء على اقطاعات الأجناد . ثم لم يلبث أن أصيبوا بالطاعون وكثرت وفياتهم بسببه حتى بلغت حتى شهر جمادى الاخـــره عام ٨٦٤ هـ « ستمائة مملوك وثلاثين مملوكا » ومن الطبيعى نتج عن كثرة وفيات المماليك الجلبان واصابتهم بالطاعون أن خفت وطأتهم وايذائهم لأهالى مصر ، مما أدى الى هبوط الأسعار وغزارة أصناف المبيعات بعد عدمها ، وقد أشـــار الى ذلك صراحة المؤرخ ابن تغرى بردى بقوله : « وانحط سعر الغلال وظهر الشـــعير والتبن والدريس لموت تلك الجبـــابرة الأجلاب » (١) .

وشاءت الأقدار أن تخف حدة الاصابة بالطاعون بعد أن فنى عددا كبيرا من المماليك الجلبـان قدرهم بعض المؤرخين بألف واربعمائة عدا بقية المماليك السلطانية ، بالاضافة الى عدد كبير من أهالى الديار المصرية وأعيانها ، نذكر منهم على سبيل المثال القـاضى زين الدين عبـــد الرحيم ابن المؤرخ المشهور بدر الدين محمود شهاب الدين أحمد العينى .

واذا كان طاعون عام ٨٦٤ هـ أفنى عددا كبيرا من المماليك الأجلاب الاينالية ، وحد من نفوذهم وسلطانهم فانه حدث بعد وفاة السلطان اينال وتولية ابنه الملك المؤيد (عام ٨٦٥ هـ (٢))

= القمح بستمائة درهم والبطة الدقيق بمائة وسبعين درهما والرطـل الخبـــز بأربعة دراهم ، بل أصـــبح غير موجود بالحوانيت .

(١) أبو المحاسن : النجوم جـ ١٦ ص ١٤٦ .

(٢) هو السلطان المؤيد شهاب الدين أحمد بن اينال حكم أربعة أشهر فقط .

أن أخذ السلطان الجديد فى « قمع المماليك الأجلاب عن تلك الأفعال التى كانوايفعلونها أيام أبيه، وهددهم بأنواع النكال ان لم يرجعوا ، فرجع الغالب منهم عن أشياء كثيرة ، وعلم الناس من السلطان ذلك ، فطمع كل أحد فى الأجلاب فانحط قدرهم ، حتى صار أحدهم لا يستطيع أن يزجر غلامه ولا خدمه » . ولكن لا يعنى هذا اننا لم نعد نسمع بعد ذلك عن ظهور المماليك الجلبان واحداث الشغب ، فالمعروف أنهم ظهروا مرة أخرى زمن السلطان سيف الدين بلباى (عام ٨٧٢ هـ ١٤٦٧ م) حيث « زادت الأجلاب فى الفساد ، وضيقت السبل ، وعظم قطع الطرقات على المسافرين مصرا وشاما »، وكانت النتيجة الطبيعية لفساد الجلبان « توقف أحوال الناس لا سيما الواردين من الأقطار ، وزادت الأسعار فى جميع المأكولات » ويتضح مما ذكره كثير من المؤرخين أن الفساد الذى قام به الأجلاب أيام بلباى كان أعظم وأشد مما حدث زمن اينال ، لدرجة أن هؤلاء المؤرخين وصفوا أيام بلباى بأنها كانت « أشر الأيام وأقبحها » ويبدو أن بلباى نفسه كان غير متزن عقليا حيث وصف فى المصادر بأنه « بلباى المجنون »(١)

★●★

وفى الأيام الأولى من سلطنة الظاهر سيف الدين خشقدم (٨٦٥ - ٨٧٢ هـ / ١٤٦٠ - ١٤٦٧ م) وبالتحديد عام ٨٦٥هـ شرقت بلاد كثيرة من ديار مصر بسبب عدم غمرها بالمياه

---

(١) أبو المحاسن : النجوم جـ ١٦ ص ٣٧٠ .

وذلك على الرغم من وفاء النيل فى ذلك العام ، أما السبب فى ذلك الشراق انما يعود الى « عدم اتقان الجسور (١)»وهذا يوضح لنا الى أى حد كان للاشراف على الجسور والقنوات أثر كبير فى الحفاظ على الأحوال الاقتصادية ٠

★●★

كما شهدت الديار المصرية أثناء سلطنة الأشرف سيف الدين قايتباى (٨٧٢ - ٩٠١ هـ / ١٤٦٧ - ١٤٩٥ م) عدد من المجاعات والأوبئة لدرجةأضرت بأحوال المجتمع المصرى ٠

وتفصيل ذلك أنه فى عام ٨٧٣ هـ (١٤٦٨ م) هبط منسوب مياه النيل ، مما أدى الى حدوث الغلاء « وشطح سعر القمح ، ووقعت المجاعة ، وصاحب تلك المجاعة ، انتشار الطاعون الذى ابتدأ انتشاره بالقاهرة فى شهر جمادى الآخرة من نفس العام ، ومن الملاحظ أن انتشار الطاعون عام ٨٧٣ هـ لم يقتصر على القاهرة فقط بل تعداها الى سائر بلدان الديار المصرية (٢) ٠

وعلى هذا النحو اشتد الغلاء والفناء بمصر على حد رأى ابن اياس (٣) ٠

ومما يذكر عن أحوال الديار المصرية أثناء ذلك الفناء ، أن الغرباء صاروا يموتون فى الطرقات ، مما دفع بعض الأمراء الى بناء مغاسل لتغسيل الموتى أبناء السبيل ، من

---

(١) أبو المحاسن : النجوم جـ ١٦ ص ٣١٤ ٠

(٢) زكريا الانصارى : تحفة الراغبين فى بيان أمر الطواعين ورقة ٢٠ (مخطوط) ٠

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٠٧

من ذلك بناء الأمير يشبك الدودار للمغسل الواقع بالقرب من مدرسة السلطان حسن « وصارت تحمل اليه الطرحاء من الموتى ، فيكفنهم ويخرجهم ويدفنهم ويصرف عليهم من ماله » (١)

ومن الملاحظ أيضا أن أكثر ضحايا ذلك الطاعون كان من الأطفال والمماليك والعبيد والغرباء . واستمر ذلك الطاعون منتشرا بمصر حتى شهر شوال عام ٨٧٣ هـ حيث أخذ فى التناقص « بعدما فتك فى الناس فتكا ذريعا » (٢) .

ومما يذكر أنه توفى فى هذا الطاعون السلطان بلباى المؤيدى وهو مسجون فى ثغر الاسكندرية ، كذلك توفيت خوند فاطمة ابنة السلطان الأشرف اينال .

ولم يمض على طاعون عام ٨٧٣ هـ فترة طويلة حتى أصيبت الديار المصرية بطاعون آخر عام ٨٨١ هـ (١٤٧٦ م) وهو الطاعون الثانى الذى شهدته الديار المصرية أثناء سلطنة الأشرف قايتباى ، ومن الملاحظ أن هذا الطاعون كان أكثر هولا من سابقه ، اذ توفى فيه جماعة كبيرة من أهل مصر وشمل معظم أفراد المجتمع المصرى خاصة « المماليك والأطفال والعبيد والجوارى والغرباء » .وكان من شدة خطر هذا الطاعون أن الذى يصاب به لا يلبث أن يتوفى فى نفس اليوم .

ومما يذكر أن ذلك الطاعون فشا فى الطباق السلطانية وبين الطواشية ، حتى قيل أن السلطان الأشرف قايتباى لم يجد أحد الطواشى يقوم بخدمته فحمل بنفسه بطيخة ودخل بها الى الحريم السلطانى . وقد أدى ذلك المغسل الذى أقامه الأمير

---

(١) أبو المحاسن : النجوم جـ ١٦ ص ٣١٦ .
(٢) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٠٨

يشبك الدوادار دورا كبيرا أثناء انتشار الطاعون ، خاصة فى تجهيز الموتى الغـــرباء ومن الملاحظ أن ذلك الطاعون لم **ينتشر فقط بالديار المصرية** ، فقد انتشر كذلك فى بلاد الحجاز خاصة مكة المكرمة · (١) ·

واذا كان طاعون عام ٨٨١ هـ لم يستمر طويلا وارتفـع نهائيا أوائل عم ٨٨٢ هـ (١٤٧٧ م) ، فلم تلبث الديار المصرية أن أصيبت مرة ثالثـــة بالطاعون عام ٨٩٧ هـ (١٤٩١ م) وبذلك تكون الديار المصرية أصيبت بالطاعون أثناء سلطنـــة الأشرف قايتباى ثلاثة مرات · أما هذا الطاعون الأخير فكان أكثر هولا وخطـرا من ســابقيه ، جاء الى مصر عن طريق العدوى من بلاد الشام ، فالمعروف أن مدينـــة حلب ابتليت بالطاعون منذ عام ٨٩٦ هـ ، ومن حلب انتقـــل الى الديار المصرية فى شهر ربيع الأول من العام التالى (٢) ·

يشير أحد المؤرخين الى أن ما ســـاد الديار المصرية من انحلال اجتماعى فى الفترة السابقة على عام ٨٩٧ هـ ، هو الذى أدى الى انتشار الطاعون بها ، فيـــذكر ابن اياس أنه كثر بمصر « الزنا واللواط وشرب الخمر وأكل الربا وجـــور المماليك فى حق الناس » ، فسلط الله عليهم الطاعون وفقـــا لقول الرسول الكريم (ص) « وما من قوم يظهر بينهم الزنا الا أخذوا بالفناء » (٣) ·

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٦٩ ـ ١٧٠
(٢) زكريا الانصارى:تحفة الراغبين ورقة ٢٠ (مخطوط)، ابن طولون : مفاكهة الخلان ج ١ ص ١٤٦ ·
(٣) ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٣ ·

ومن الملاحظ أنه صاحب انتشار هذا الطاعون ، انتشار الغـــلاء حتى « بيعت الكمثـــرى كل رطل بأشرفيتين ولا توجد » (١) . كما كثرت الوفيات خاصة فى المماليك والعبيـد والجوارى والأطفال والغرباء ، وقد أحصى ابن اياس من مات فى هذا الطاعون فكان زيادة على مائتى ألف » (٢) ، كذلك كثرت وفيات البنات الأبكار حتى بلغن « اثنى عشر ألف بنت من مصر والقاهرة والضواحى « نذكر منهن على سبيل المثال بنت أوزبك الأمير الكبير ، وبنت السلطان قايتبـاى ســت الجراكسة . كذلك توفى عدد كبير من المماليك ، ممـــا دفع السلطان قايتبـاى الى اعادة توزيع اقطاعات من مات من مماليكه فى الطاعون ، واتبع فى ذلك نظام توزيع اقطاع كل من توفى من الطباق على أهل طباقه ، كما قام بتوزيع عـدد كبير من الخيول على مماليكه وذلك « لكثرة الخيول وقـــلة الغلمان » . وعلى الرغم من اتباع السطان قايتباى نظـــام دقيق فى توزيع تلك الاقطاعات ، الا أنه شـــبت ثورة بين المماليك الجلبان فى شهر رمضان عام ٨٩٧ هـ بسبب توزيع تلك الاقطاعات (٣) .

---

(١) يلاحظ أن هذا الغلاء نتيجة اشتداد الطلب على بعض أنواع المأكولات ، ولم يكن بسبب انخفاض النيل ، فالمعروف أن النيل وفى وفاءا مباركا عام ٨٩٧ هـ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور حـ ٢ ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ .
وذكر ميور Muir الى أنه أحصى من مات فى يوم واحـــد فكان حوالى اثنى عشر ألف نسمة ،
The Mameluke, P. 179.

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٢٧٥ ـ ٢٧٧ .

ومن الجدير بالذكر أنه نتيجة لوقوع الطاعون فى دولة الأشرف قايتباى ثلاث مرات وتهديده المستمر لأهالى مصر ، قام الشيخ زكريا الانصارى (ت ٩٣٦ هـ) قاضى القضاة بكتابة رسالة فى الطاعون أسماها « تحفة الراغبين فى بيان أمر الطواعين » وهى عبارة عن تلخيص لكتاب العلامة ابن حجر العسقلانى « بذل الماعون فى فضل الطاعون » وذلك وفق ما جاء فى مقدمة زكريا الانصارى لرسالته تحفه الراغبين أنه « لما كان كتاب بذل الماعون فى فضل الطاعون لشيخنا شيخ الاسلام الشهاب أحمد بن على بن حجر العسقلانى رحمه الله مما عرف قدره واشتهر أمره ، غير أنه فى الاسهاب والاطناب ربما عز تناوله عن بعض الأحباب وعسر تحصيله عن كثير من الطلاب اختصرته فى أربعة عشر فصلا بحذف ما تكرر فيه وما ليس مقصورا لغالب الأصحاب ، قاصدا بذلك التسهيل والأجر والثواب ، وابدلت ذلك بزيادات تعرف للمتأمل فى المباحث الآتية خصوصا فى خاتمة الكتاب ، وسميته تحفة الراغبين فى بيان أمر الطواعين » (١) .

وبالاضافة الى تلك الأوبئة التى أصابت الديار المصرية زمن الأشرف قايتباى ، شهدت البلاد أواخر عام ٨٩٩ هـ (١٤٩٤ م) توقف ماء النيل عن الزيادة مما أدى الى قلق الناس وتكالبهم على شراء القمح والشعير وغير ذلك من الغلال ، مما أدى الى ارتفاع أسعارها (٢) .

٧

(١) زكريا الانصارى : تحفة الراغبين فى بيان أمر الطواعين ورقة (١) مخطوط .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٢٨٤ - ٢٨٥

وعلى الرغم من وفاء النيل فى العام التالى (٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م) ووفرة المحصولات وما صاحبه من حدوث الرخاء بصعيد مصر فان مؤرخ هذه الفترة ابن اياس اعتبر انخفاض ثمن الخبز « من النوادر » بسبب استمرار ارتفاع سعره مدة طويلة من الزمن ٠

وفى عصر السلطان الناصر أبو السعادات ناصر الدين محمد بن الأشرف قايتباى (٩٠١ - ٩٠٤ هـ / ١٤٩٦ - ١٤٩٨ م) وقع الطاعون بالديار المصرية ، ويبدو أنه جاء عن طريق العدوى من غزة ، فيذكر المؤرخين أنه فى شهر شعبان من عام ٩٠٢ هـ (١٤٩٧ م) أنه جاءت الأخبار بأن الطاعون وقع بمدينة غزة ، ثم بدأ يزحف تجاه الديار المصرية (١) ، حتى كان شهر رجب عام ٩٠٣ هـ (١٤٩٧م) ظهر الطاعون بالقاهرة ، حيث توفى به جماعة كبيرة من أهلها (٢) ثم تزايد أمر هذا الطاعون فى شهر شعبان من السنة المذكورة ، وتزايد عدد الوفيات من المماليك السلطانية ، لدرجة أن السلطان أمر بصنع ثلاثين نعشا لحمل من يموت من مماليكه بالقلعة ، كذلك كثرت الوفيات بين الأطفال والعبيد والجوارى

---

(١) زكريا الأنصارى : تحفة الراغبين ، ورقة ٢٠ (مخطوط) ٠

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٤٠ ، زكريا الانصارى : تحفة الراغبين ورقة ٢٠ ٠

والغرباء ، فضلا عن عدد كبير من الأعيان (١) وعندما تزايد الموت بالطاعون على هذا النحو أمر السلطان بعمارة سبيل المؤمنين (٢) .

وبعد أن توفى قرابة « مائتى ألف انسان من كبير وصغير ومن المماليك السلطانية نحو من ألف ومائتى انسان » فى طاعون عام ٩٠٣ ، الذى استمر ثلاثة أشهر ابتداء من شهر رجب ، أخذ فى الارتفاع التدريجى منذ أواخر شهر رمضان عام ٩٠٣ هـ .

ولم يقتصر عهد الناصر أبو السعادات على ما شهده من أوبئة ، اذا امتلأ أيضا بالأزمات الاقتصادية ، فقد حدث أواخر عام ٩٠٢ هـ (١٤٩٧ م) أن هبط ماء النيل وشرقت غالب أراضى مصر ، مما أنزل أكبر الضرر بالمحاصيل الزراعية ، وزاد الأمر سوءا حدوث الفتن بين الأتراك من جهة والعربان من جهة أخرى عقب وفاة الأشرف قايتباى (٣)

---

(١) نذكر من هؤلاء الأعيان : الناصرى محمد بن الشهابى أحمد ابن العينى الذى تقلد عدة مناصب من أهمها حسبة القاهرة ونظر الجوالى ووكالة بيت المال ، وبيبرس حيدر الأشرفى قايتباى نائب القلعة ، وكذلك الأمير جان بلاط الغورى رأس نوبة النوب ، (أنظر ابن اياس : ج ٢ ص٣٤١)

(٢) وهى المصلى التى كانت بالرميلة وكانت خرابا .
أنظر ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٣٨ - ٣٤٣ .

(٣) ابن طولون : مفاكهة الخلان ج ١ ص ١٨٢ - ٢٠٢

وكان من أهم نتائج هذه الفتن تلك الحرائق التى أشعلت فى الأجران ، ونهب كثير من البلدان ، مما أدى الى حدوث الغلاء بالديار المصرية (١) ويشير ابن اياس وهو المؤرخ المعاصر لهذه الأحداث أن « الأحوال فى تلك الايام كانت فى غاية الفساد » (٢) .

●★●

ومما زاد من تدهور الأحوال الاقتصادية (٣)زمن السلطان الأشرف قانصوة الغورى (٩٠٦ - ٩٢٢ هـ / ١٥٠٠ - ١٥١٦ م) ضربه لفلوس جدد تقل قيمتها عن قيمة الفلوس التى كانت موجودة ، بحيث أصبحت وفق قول ابن اياس « تخسر فى المعاملة الثلث » مما أدى الى تعطل الأسواق وحركة البيع والشراء ، ثم ضرب السلطان فلوسا أخرى جدد نقش عليها هيئة شباك « فوقف أمر الفلوس التى كانت قبل ذلك ، وتوقف حال الناس ، وصارت البضائع تباع بسعرين، بسعر من الفلوس الجدد وسعر بالفلوس العتق » ،و لم يكتف السلطان الأشرف قانصوة الغورى بهذا، بل أصدر أمرا الى المحتسب بأن يؤدى الى خزانة السلطان مال معلوم مما أدى بالتالى ، الى أن قرر المحتسب هذه الأموال على التجار وأصحاب الحرف وألزمهم بتقديمها له كل شهر ، مما أدى

---

(١) ومما يلاحظ أن السنوات التى خلت من الفتن والاضطرابات كانت سنوات رخاء اقتصادى .

(٢) أبن اياس : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٠٦ - ٣١٦ .

(٣) المعروف أن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ، جاء ايذانا بضياع أهمية مصر بوصفها المهيمنة على طريق التجارة الى الشرق، وأفقدها مركزها التجارى وأدى الى تدهورها اقتصاديا .

الى أن رفع التجار أسعار بضائعهم حتى يستطيعوا تأدية ما قرر عليهم من أموال ٠

وبالاضافة الى الوضع الاقتصادى المتدهور لمصر فى تلك الفترة ، فان الطاعون « هجم هجمة واحدة على أهالى الديار المصرية » عام ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م وكثـــرت الموتى (١) ، لدرجـــة أن السلطان قانصـــوة الغـورى أقام مغســـلا للأموات بجوار سبيل المؤمنين « فحصل به للناس غاية النفع» ويبدو لنا أن سلاطين العصر المملوكى كانوا فى وقت الشدة يتقربون الى الله تعالى حتى تزول الغمة والشدة ، فيعودوا مرة أخرى الى ارتكاب المعاصى واتيان المحـرمات ، وينطبق هذا القول على السلطان الأشرف قانصوة الذى حاول التقرب الى الله تعالى أثناء انتشار هذا الطاعون ، فأصـــدر أمرا بتحريم النواح على الأموات خاصـــة ما تفعله النســـاء ، كذلك أصدر أمرا بكبس بيوت النصارى واراقة ما بهـــا من خمر ، واحراق الأماكن التى بها شرب « الحشيش والبوزة » ، كما أصدر أمرا بعدم جمـــع الأموال من المحتسبين ـ التى سبق أن أشرنا اليها ـ والتى أضرت بالتجار والحرفيين وأهل البلاد ٠

واذا كان طاعون عام ٩١٠ هـ لم يستمر طويلا وارتفـــع عن الديار المصرية ، الا أن تلك الديار شـــهدت انتشـــار الطاعون بهـــا مرة أخرى عام ٩١٩ هـ /١٥١٣ م وتوفى به عدد كبير من أهالى مصر (٢) وقد خشى كثير من الأمراء على

---

(١) زكريا الانصارى : تحفة الراغبين ورقة ٢٠ (مخطوط)
(٢) زكريا الانصارى: تحفة الراغبين ورقة ٢٠ (مخطوط)

أولادهم من الاصابة بالطاعون ، فهجروهم الى جبل الطور بعيدا عن أماكن انتشار الطاعون ، وفى نفس الوقت أشار بعض الحكماء على السلطان الأشرف قانصوة الغورى بلبس خواتم ياقوت حمر فى أصابعه « فانه ينفع لمنع الطاعون وقد سارع السلطان بتنفيذ تلك النصيحة طلبا لمنع الاصابه بالطاعون · وعلى الرغم من كل ذلك اشتد أمر الطاعون وكثرت الوفيات وفتحت مغاسل السبيل « على جارى العادة » وفى نفس الوقت شرع السلطان فى التقرب الى الله عز وجل وذلك عن طريق تحريم المحرمات ورفع الظلم عن الرعية ، فأصدر قرارات خاصة بمنع بيع النبيذ والحشيش والبوزة ومنع النساء الخواطىء من ارتكاب الفاحشة ، وكذلك أبطل كافة المكوس التى كانت مقررة على أهل التجار والحرف ، وذلك أملا فى رضى الله عز وجل عنه وطلبا لرفع شر الطاعون عن مملكته ·

وعندما أيقن السلطان الأشرف قانصوة الغورى من ارتفاع الطاعون عن الديار المصرية فى نهاية عام ٩١٩ هـ ، أصدر أوامره باعادة فرض بعض المكوس على التجار والحرفيين ! « فشق على الناس ذلك » ·

●★●

« المصادر والفهارس »

أولا : المصادر والمراجع

الأدفـــوى : (ت ٧٤٨ هـ) كمال الدين أبو الفضل جعفـــر
الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد ٠
(القاهرة ١٩٦٦)

ابن الأخوة : (ت ٧٢٩ هـ) محمد بن محمد بن أحمد ٠
معالم القربة ٠
(كمبردج ١٩٣٧)

ابن أبى اصيبعة : (ت ٦٦٧ هـ) أبو العباس أحمد بن القاسم
عيون الأنباء فى طبقات الاطباء ٠
(القاهرة ١٢٩٩ هـ)

ابن اياس : (ت ٩٣٠ هـ) أبو البركات محمد بن أحمد ٠
بدائع الزهور فى وقائع الدهور ٠
(بولاق ١٣١١ هـ)

ابن أيبك الدوادارى (ت ٧٦٩ هـ) أبو بكر بن عبد الله ٠
الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب ٠
(القاهرة ١٩٧٢ م)

ابن حجر العسقلانى : (ت ٨٥٣ هـ) شهاب الدين بن على ٠
بذل الماعون فى فضل الطاعون ٠
(مخطوط بدار الكتب المصرية)

الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة ٠
(القاهرة ١٩٦٦)

ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ) عبد الرحمن بن محمد ٠
المقدمة ٠
(المطبعة التجارية بالقاهرة)
ابن داود الصيرفى : (ت ٩٠٠ هـ) على بن داود بن ابراهيم
نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان
(القاهرة ١٩٧٠ ـ ١٩٧٤)
ابن طولون : (ت ٩٥٣ هـ) شمس الدين محمد بن على
مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان ٠
(القاهرة ١٩٦٢ ـ ١٩٦٤)
ابن عبد الحكم : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ٠
فتوح مصر وأخبارها ٠
(ليدن ١٩٢٠)
ابن الوردى : (٧٤٩ هـ) عمر بن الوردى ٠
تاريخ ابن الوردى المعروف بتتمة المختصر ٠
(بيروت ١٩٧٠)
النبا عن الوبا ٠
(ضمن كتاب مقامات ورسائل ابن الوردى طبع القسطنطينية)
أبو الحسن على :
فردوس الحكمة ٠
(برلين ١٩٢٨)
أبوا الفـــدا : (ت ٧٣٢ هـ) عماد الدين اسماعيل ٠
المختصر فى أخبار البشر
(القاهرة ١٣٢٥)
أبو المحاسن : (ت ٨٧٤ هـ) يوسف بن تغرى بردى ٠
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ٠
(طبع دار الكتب المصرية)

المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى

(القاهرة ١٩٥٦ م)

تسيوجيتاكا Tsugitaka Sato Irrigation in Raral Egypt
Orient vol YII—1972

جيوفرى : Geoffrey Marks
The Medieval plague U. S. A. 1971

داود الانطاكى :
تذكرة أولى الألباب
(المطبعة الأزهرية ١٣٠٩ هـ)

زامباور :
معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى القاهرة ١٩٥٠

زكريا الأنصارى :
تحفة الراغبين فى بيان أمر الطواعين ٠
مخطوط بدار الكتب المصرية

زكى محمد حسن :
فنون الاسلام
القاهرة ١٩٤٨

السبكى : (٧٧١ هـ) تاج الدين أبى نصر عبد الوهاب
معيد النعم ومبيد النقم ٠
لندن ١٩٠٨

السخاوى : (٩٠٢ هـ) الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن
التبر المسبوك فى ذيل السلوك
بولاق ١٨٩٦

سعيد عاشور :

العصر المماليكى فى مصر والشام

القاهرة ١٩٦٥

المجتمع المصرى

القاهرة ١٩٦٢

سيدة كاشف :

الأرض والفلاح فى مصر الاسلامية

. (مقال فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية القاهرة ١٩٧٤)

مصر فى عصر الطولونيين والاخشيديين

السيوطى : (ت ٩١١ هـ) عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين

حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة .

القاهرة ١٢٩٩

العمـــرى : (ت ٧٤٢ هـ) شهاب الدين أبى العباس أحمد بن فضل الله .

التعريف بالمصطلح الشريف .

القاهرة ١٣١٢ هـ

العينى : (ت ٨٥٥ هـ) بدر الدين محمود

عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان

مخطوط بدار الكتب رقم ١٥٨٤ تاريخ

القلقشندى : (ت ٨٢١ هـ) أبى العباس أحمد .

صبح الأعشى فى صناعة الانشا

طبعة دار الكتب المصرية

محمد رمزى :

القاموس الجغرافى

القاهرة ١٩٥٤ ـ ١٩٦٣

المقريزى (ت ٨٤٥ هـ) تقى الدين أحمد بن على
النقود الاسلامية

القاهرة ١٩٣٩

السلوك لمعرفة دول الملوك

القاهرة ١٩٥٦ - ١٩٧٤

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

القاهرة ١٩٠٧

اغاثة الأمة بكشف الغمة

القاهرة ١٩٤٠

المليبـــارى : زين الدين بن عبد العزيز
فتح المعين بشرح قرة العين

دار الكتاب العربى

ميـــور :
Muir
The Mame juke or slave Dynasty of Egypt (London 1896)

النويرى : (ت ٧٣٣ هـ) شهاب الدين أحمد
نهاية الأرب فى فنون الأدب

طبع دار الكتب المصرية

هودجيث :
C. A
A Social and Economic hist of Medieval Europ. (Lodon 1972)

ياقوت : (ت ٦٢٦ هـ) شهاب الدين أبو عبد الله .
معجم البلدان

بيروت ١٩٦٨

ثانيا : الفهارس

أ ـ فهرس الأعلام

(أ)

الأدفودى: ١٨ ـ ٣٨
الأشرف اينال العلائى : ١٠٧ ـ ١٠٨ ـ ١٠٩ ـ ١١٠ ـ ١١١
الأشرف برسباى : ١٤ ـ ٩٠ ـ ٩١ ـ ٩٢ ـ ٩٣ ـ ٩٧ ـ ٩٨ ـ ١٠٠ ـ ١٠١
الأشرف شعبان : ٤٩ ـ ٥٠
الأشرف سيف الدين قايتباى : ١١٢ ـ ١١٣ ـ ١١٤ ـ ١١٥ ـ ١١٦ ـ ١١٨
الأشرف قانصوة الغورى : ١١٩ ـ ١٢١
الأمير تاج : ٧٨ ـ ٧٩
ابراهيم بن على المعمار : ٤٧
ابقرط (الحكيم) : ١٨
أحمد بن عدنان : ٩٨
أحمد بن يحيى بن أبى بكر بن عبد الواحد : ٥٠
اسماعيل بن موسى السفطى : ٣٨
افتخار الدين ياقو الأرغونى : ٩٦
ابن إياس : ١٠ ـ ١٧ ـ ١١٢ ـ ١١٤ ـ ١١٥ ـ ١١٧ ـ ١١٩ .
ابن أيبك الدوادارى : ٢٩
ابن تغرى بردى : ١٧ ـ ٢٣ ـ ٣٢ ـ ٣٦ ـ ٤٥ ـ ٤٩ ـ ٥١ ـ ٧٠ ـ ٩٤ ـ ٩٦ ـ ٩٧ ـ ٩٩ ـ ١٠٣ ـ ١٠٥ ـ ١٠٦ ـ ١٠٩ . ٩

ابن حجر : ٧ ـ ١٧ ـ ١٨ ـ ٣٤ ـ ٣٧ ـ ٨٤ ـ ٨٥ ـ ٨٧ ـ ١٠٢ ١١٦

ابن خلدون : ١٨ ـ ٩٢

ابن داود الصيرفى : ٥٣ ـ ٦١ ـ ٧٨ ـ ٨٠ ـ ٨٨ ـ ٩٦ ـ ١٠٠

ابن الوردى : ٧ ـ ٤٠ ـ ٤٥ ـ ٤٧

أبو جعفر المنصور : ٢٣

أبو الحسن على بن سهل : ١٨

أبو العباس السفاح : ٢٣

أبو عبيدة بن الجراح : ٨٤ ـ ٨٥ .

أبو عون عبد الملك بن زيد الخرسانى : ٢٣

أبو الفدا : ٣٥

(ب)

بدر الدين الاستادار : ٨١

بدر الدين العينى : ٦٤ ـ ٦٥ ـ ٧٢ ـ ٩٠

بدر الجمالى : ٢٧

بلباى المؤيدى : ١١١ ـ ١١٣

بيبرس الجاشنكير : ٣٩ ـ ٤٠

بيبرس حيدر الأشرف قايتباى : ١١٨ .

(ت)

تقى الدين أحمد بن على (المقريزى) : ٧ ـ ١٥ ١٧ ـ ٢٤ ـ ٢٥ ـ ٢٨ ـ ٢٩ ـ ٣٥ ـ ٥٥ ـ ٥٦ ـ ٥٨ ـ ٦١ ٦٢ ـ ٦٤ ـ ٦٥ ـ ٧٠ ـ ٧١ ـ ٧٢ ـ ٧٧ ـ ٨١ ـ ٨٥ ـ ٨٨ ـ ٨٩ ـ ٩٥ ـ ٩٧ ـ ٩٩ ـ ١٠٢ .

(ج)

جار قطلوا (الأمير) : ٩٣ ٠
جان بلاط الغورى (الأمير) : : ١١٨ ٠
جبريل (عليه السلام) : ٨٦ ٠
جلال الدين عبد الرحمن بن البلقينى : ٦٧ ـ ٦٨ ـ ٧٩ ـ ٨٩
جمال الدين عمر الطنبدى : ٦٥
جمال الدين محمد بن عمر من على : ٦٥

(ح)

حاجى : ٥٣ ٠
حامد زيان : ٣ ـ ٤
الحافظ لدين الله : ٢٧
الحاكم بأمر الله : ٢٤ ـ ٢٥
حفص بن الوليد : ٢٣ ٠

(خ)

خمارويه : ٢٣

(د)

داود (عليه السلام) : ٨٦

(ر)

رضوان بن ولخش (الوزير) : ٢٧

(ز)

زكريا الأنصارى : ٨ ـ ١١٦
زين الدين اسماعيل : ٣٨ ٠
زين الدين عبد الرحمن : ١١٠

(س)

السبكى : ٥٩
ست الجراكسة ابنة السلطان قايتباى : ١١٥
السخاوى : ٨٥ ـ ١٠٢ ـ ١٠٣ ـ ١٠٤
سراج الدين عمر البلقينى : ٥٦ ـ ٥٧

سعد الدين بن غراب (الاستادار) : ٦٩
سودون المارديني (الأمير) : ٦٩
سيف الدين بلباى : ١١١
سيف الدين يشبك بن عبد الله : ٩٦ .
السيوطى : ٣٢ ـ ٣٥

(ش)

شرف الدين محمد بن الدماميني : ٥٧ ـ ٦٠
شرف الدين محمد بن على الجيزى : ٧٢
شرف الدين يحى المناوى : ١٠٤
شعبان بن محمد الأثارى : ٦١
شمس الدين الحلاوى : ٧٨ ـ ٧٩
شمس الدين محمد المخانسى : ٥٧ ـ ٦٠
الشيخ على : ١٠٤

(ص)

الصالح اسماعيل بن الناصر محمد : ١٧
الصالح طلائع بن رزيك : ٢٧
الصالح محمد بن الظاهر ططر : ٩٦
الصالح نجم الدين أيوب : ٣٠
صدر الدين : ٨٢

(ظ)

الظاهر برقوق : ١٥ ـ ٥١ ـ ٥٢ ـ ٥٣ ـ ٥٤ ـ ٥٥ ـ ٥٤ ـ ٥٥ ـ ٥٦ ـ ٥٧ ـ ٦١ ـ ٦٢ ـ ٦٣ ـ ٦٦ ـ ١٠٢ ـ ١٠٤ .
الظاهر بيبرس البندقدارى : ٣١
الظاهر جقمق : ١٠١ ـ ١٠٤ ـ ١٠٥ ـ ١٠٦
الظاهر خشقدم : ١١١

(ع)

العادل كتبغا : ٣٢ ـ ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٩ .

العادل سيف الدين أبو بكر : ٢٧ ـ ٢٩ ـ ٣٠ ـ ٣٥ ٠
عبد الرحمن بن معاذ بن جبل : ٨٥
عبد الرحمن بن معاوية بن حديج الكندى : ٢٢
عبد العزيز بن مروان : ٢١ ـ ٢٢
عبد الله بن عبد الملك بن مروان : ٢٢
عبد الملك بن مروان : ٢١
العزيز جمال الدين بن برسباى : ١٠١
عمر بن الخطاب : ٨٤
العمرى : ٥٩

(ف)

الفائز (الخليفة الفاطمى) : ٢٧
فاطمة ابنة الأشرف اينال : ١١٣
فرج بن النحال (الوزير) : ١٠٧

(ق)

قانصوة الغورى : ١٢٠
القلقشندى : ٩ ـ ٣١ ٠

(ك)

كافور الأخشيدى : ٢٤
الكامل شعبان : ١٧ ـ ٤٢
الكامل محمد : ١٥ ـ ٣٠

(م)

محمد بن الأشرف برسباى : ٩٦
محمد بن البرجى : ٥٥ ـ ٥٩ ـ ٦٠
محمد الشهابى أحمد بن العينى : ١١٨
محمد بن الناصر فرج : ٩٦
محمد بن محمد عبد الله القيصرى : ٥٢
محمد بن محمد بن عيسى النصيبى القوصى : ٣٨ ٠
مرجان الهندى الخازندار : ٧٧

المستعين بالله (الخليفة العباسى) : ٩٦ ٠
المستنصر بالله (الخليفة الفاطمى) : ٢٥ ـ ٢٦ ٠
المظفر أحمد بن المؤيد شيخ : ٩٦
معاذ بن جبل : ٨٤ ـ ٨٥
المعتصم بالله (الخليفة العباسى) : ٧٥
المنصور بن عبد العزيز : ٢٧ ـ ٧٤ ٠
المنصور محمد : ٤٨
المؤيد شيخ : ٧٥ ـ ٧٦ ـ ٧٧ ـ ٧٩ ـ ٨٤ ـ ٨٥ ـ ٨٧ ـ ٨٩ ـ ١١٠ ٠
ميور : ١١٥

(ن)

الناصر أبو السعادات محمد بن الأشرف قايتباى : ١١٧ ـ ١١٨
الناصر حسن بن الناصر محمد : ٤٣ ـ ٤٨
ناصر الدولة بن حمدان (زعيم الأتراك) : ٢٥ ـ ٢٦ ٠
الناصر فرج بن برقوق : ٦٢ ـ ٦٤ ـ ٦٦ ـ ٧٠ ـ ٧٣ ـ ٧٤ ـ ٧٥
الناصر محمد : ٤٠ ـ ٤١ ـ ٤٢ ـ ٤٨ ٠
نجم الدين (أمير بنى كنز) : ٣٨
نور الدين على بن الحسن القسطلانى : ٣٩
النويرى : ١٢

(هـ)

هشام بن عبد الملك : ٢٣

(و)

الوليد بن عبد الملك بن مروان : ٢٢

(ى)

يزيد بن أبى سفيان : ٨٤
يشبك الدودار : ١١٣ ـ ١١٤
يوسف (عليه السلام) : ٢١

ب ـ فهرس الأمم والقبائل والطوائف

(أ)

الأتراك : ٢٦ ـ ١١٨
الأجناد : ٤٦ ـ ١١٠
الأخشيديين : ٢٣
الأساكفة : ٤٦
الأشراف : ٩٨
الأطباء : ٢٩ ـ ٣٧
الأمراء : ٦٣
الأمويين : ٢٣
أوباش العامة : ٦٠
أهل البيت : ٩٨

(ب)

بنى اسرائيل : ٨٦
بنى كنز : ٣٩

(ت)

التتار : ٥

(ح)

الحرامية : ١٠٩

(خ)

الخاصكية : ٦٣
خبازين : ٢٦
الخلفاء الفاطميين : ٢٤
الخياطين : ٤٦

(د)

الروم : ٤٤

(س)

السقايين : ٤٢
السودان : ٢٦ ـ ٩٤

(ط)

طحانين : ٢٦
الطواشية : ١١٣
الطولونيين : ٢٣

(ع)

عامة القاهرة : ٩٠
العباسيين : ٢٣
العبيد : ٢٦
العجم : ٤٤ ـ ٩٨
عرب : ٩٨
عربان : ٢٥ ـ ٣٣ ـ ١١٨
العوام : ١٠٩

(ف)

الفلاحين : ٤٦ ـ ٧٢

(م)

المشاعلية : ٣٤
المغول : ٥
المماليك البرجية : ٥١
المماليك الجلبان (الأجلاب) : ١٦ ـ ٤٩ ـ ٩٣ ـ ٩٤ ـ ١٠٦
ـ ١٠٧ ـ ١٠٨ ـ ١٠٩ ١١٠ ـ ١١١ ـ ١١٥
المماليك السلطانية : ٧١ ـ ٩٧ ـ ١٠٠ ـ ١١٠ ـ ١١٧ ـ ١١٨

(ن)

النصارى : ١٠٤ ـ ١٢٠

(ى)

اليهود : ١٠٤

حـ ـ فهرس البلاد والمدن والمواضع والأنهار

(أ)

أبى قرقور : ٢٢
أرض الخطا : ٤٤
أزبك : ٤٤
الاسكندرية : ٤٤ ـ ٤٦ ـ ٦٤ ـ ٨١
أسوان : ٤٩
آسيا الصغرى : ٥
أسيوط : ٧١ ـ ٧٣

(ب)

باب زويلة : ٩١
باب النصر : ٧٩
البحر الأحمر : ٥
البحر الأسود : ٥
البحيرة : ٤٥ ـ ٧٨ ـ ٩٤
بردين : ٨٢
البر الغربى : ٦٥
برقة : ٤٤
البصرة : ٥
بغداد : ٥ ـ ٨٠
بلاد الحجاز : ١١٤
بلاد الساحل : ٣٦
بلاد الشام : ٤٨ ـ ٤٩ ـ ٥١ ـ ٧٢ ـ ٧٣ ـ ٧٦ ـ ٧٩ ـ ٨٠ ـ ٨٤ ـ ٨٥ ـ ٩٠ ـ ٩٩ ـ ١٠٩ ـ ١١٤
بلاد الشرق : ٣٦ ـ ٤٣
بلاد الصعيد : ٧٣ ـ ٨١ ـ ٩٤ ـ ٩٥ ـ ٩٩

بلاد الفرنج : ٨٢
بلاد القدس : ٣٦
بلاد الكرك : ٣٦
بدلا المغرب : ٢٨
بلاد اليمن : ٣٦
بلبيس : ٨٢ ـ ١٠٩
بوتيج : ٧٣ ـ ٩٤
بولاق : ٤٣ ٦٥
بولندا : ٥
البهنسى : ٧٦

(ت)

الترب : ٧٩
تربة الظاهر برقوق : ٨٣
تروجة : ٤٥

(ج)

جامع أحمد بن طولون : ٣١
الجامع الأزهر : ٥٦ ـ ٦٧ ـ ٩٨
جامع عمرو بن العاص : ١٠٨
جبل الطور : ١٢١
الجزائر : ٤٤
جزر البحر المتوسط : ٤٤ ٧٧
الجزيرة العربية : ٢٨
جسر أم دينار : ١٠
الجيزة : ١٠

(ح)

حلب : ٣٦ ـ ٤٩ ـ ١١٤
حل بنى يعقوب : ٣٦
الحوش القبلى : ٨٣
الحوف الشرقى : ٩٩
حلوان : ٢١ ـ ٢٢

(خ)

خانقاه سرياقوس : ١٠٩
الخليج (خليج القاهرة) : ٥ ـ ١١ ٩

(د)

دار الطراز : ٤٤ ـ ٤٦
دار الوكالة : ٤٦
دمشق : ٤٢ ـ ٤٩ ـ ٩٥
دمياط : ٨١ ـ ٩٠
دمنهور : ٤٥
الدولة الفاطمية : ٢٤
الديار المصرية : ٢٥ ـ ٣٠ ـ ٣١ ـ ٣٣ ـ ٣٤ ـ ٣٥ ـ ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٤٠ ـ ٤٣ ـ ٤٨ ـ ٤٩ ـ ٥١ ـ ٥٦ ـ ٦٣ ـ ٦٨ ـ ٦٩ ـ ٧٠ ـ ٧١ ـ ٧٢ ـ ٧٣ ـ ٧٥ ـ ٧٦ ـ ٧٩ ـ ٨٠ ـ ٨١ ـ ٨٢ ـ ٨٥ ـ ٩٠ ـ ٩١ ـ ٩٢ ـ ٩٤ ـ ٩٩ ـ ١٠١ ـ ١٠٢ ـ ١٠٣ ـ ١٠٥ ـ ١٠٦ ـ ١٠٨ ـ ١٠٩ ـ ١١١ ـ ١١٢ ـ ١١٣ ـ ١١٤ ـ ١١٦ ـ ١١٧ ـ ١١٩ ـ ١٢٠ ـ ١٢١
ديروط : ٨٢

(ر)

رأس الرجاء الصالح : ١١٩
رباط الآثار النبوية : ٦٨ ـ ٩٣
الرميلة : ١١٨
روسيا : ٥

(س)

سبيل المؤمنين : ٣٩
سرياقوس : ١٩
سفح الجبل : ٧٩ ٠
السند : ٤٤
السويس : ٩٧

(ش)

الشام : ٣ ـ ١٩ ـ ٢٨ ـ ٤٣ ـ ٨٠ ـ ٨٦
الشرق : ١١٩
الشرق الأدنى : ٣
الشرق الأقصى : ٥
شرق أوربا : ٤٣
الشرقية : ٤٥ ـ ٦١ ـ ٨١ ـ ٨٢
شمال افريقية : ٦٩
الشوبك : ٣٦ ـ ٤٢

(ص)

الصعيد : ٤٥ ـ ٦١ ـ ٦٨ ـ ٧١ ـ ٧٢ ـ ١١٧
صفد : ٩٥
صهريج منجك : ٥٠
الصين : ٤٤

(ض)

ضاحية المعادى : ٤

(ط)

طرابلس الشام : ٨٠

(ع)

العراق : ٥ ـ ٤٣ ـ ٩٩
غرب أوربا : ٤٤
الغربية : ٤٥ ـ ٦١ ـ ٨١ ـ ٨٢ ـ ٩٤
غزة : ٤٢ ـ ٤٩ ـ ٩٥ ـ ١٠٩ ـ ١١٧

(ف)

فارسكور : ٩٠
الفسطاط : ٢١ ـ ٢٢ ـ ٦٤
الفيوم : ٩٩

(ق)

القاهرة : ٢٨ ـ ٣٣ ـ ٤٤ ـ ٥٠ ـ ٦١ ـ ٦٤ ـ ٦٥ ـ ٦٩ ـ
٧٢ ـ ٧٦ ـ ٧٧ ـ ٧٨ ـ ٧٩ ـ ٨٠ ـ ٩٠ ـ ٩٧ ـ
٩٩ ـ ١٠١ ـ ١٠٢ ـ ١٠٤ ـ ١٠٧ ـ ١٠٨ ـ ١٠٩
ـ ١١٢ ـ ١١٥ ـ ١١٧ .
قبة النصر : ٧٩ ـ ٨٣ ـ ١٠٤ .
القدس : ٩٥
القرم : ٤٤
قرى الحجاز : ٣٦
القسطنطينة : ٤٣
قلعة الجبل : ٦٠ ـ ٨٩ ـ ١٠٠ ـ ١١٧
قوص : ٣٨ ـ ٧١

(ك)

الكرك : ٤٢

(م)

المحلة : ٤٥ ـ ٤٦ ـ ٩٤
مدرسة السلطان حسن : ١١٣
المدرسة الشمسية : ٣٨
مدن الشام : ٣٦
المشرق : ١٨
مصر : ٣ ـ ٥ ـ ٦ ـ ٨ ـ ٩ ـ ١٢ ـ ١٤ ـ ١٥ ـ ١٦ ـ
١٩ ـ ٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٢ ـ ٢٣ ـ ٢٦ ـ ٢٧ ـ
٢٨ ـ ٣٠ ـ ٣١ ـ ٣٣ ـ ٣٤ ـ ٣٧ ـ ٣٨ ـ
٣٩ ـ ٤٠ ـ ٤١ ـ ٤٢ ـ ٤٤ ـ ٤٦ ـ ٥١ ـ
٥٧ ـ ٦١ ـ ٦٤ ـ ٦٥ ـ ٦٧ ـ ٦٨ ـ ٦٩ ـ ٧٣ ـ
٧٦ ـ ٨٠ ـ ٨٥ ـ ٨٨ ـ ٩٠ ـ ٩٤ ـ ٩٥ ـ ٩٦ ـ
٩٧ ـ ٩٩ ـ ١٠١ ـ ١٠٢ ـ ١٠٣ ـ ١١٢ ـ ١١٣ ـ
١١٤ ـ ١١٥ ـ ١١٩ ـ ١٢٠
مصر القديمة : ٨٤ ـ ١٠٨
مقياس أخميم : ١٠
مقياس أسوان : ١٠
مقياس أنصنا : ١٠
مقياس الجزيرة : ١٠
مقياس حلوان : ١٠
مقياس دندره : ١٠
مقياس منف : ١٠
مقياس النيل : ١٠ ـ ١٢ ـ ٢٨ ـ ٤٢
مكة : ٣٦ ـ ـ ٨٤ ـ ١١٤
منبابه : ٤٣
منشأة المهرانى : ٤٣
منشية أخميم : ٩٤

(ن)

النيل : ٦ ـ ٩ ـ ١٢ ـ ١٣ ـ ١٤ ـ ١٩ ـ ٢٢ ـ ٢٨ ـ ٣٠
ـ ٣٢ ـ ٣٤ ـ ٣٦ ـ ٣٨ ـ ٣٩ ـ ٤٠ ـ ٥١ ـ ٥٤ ـ
٥٨ ـ ٦٥ ـ ٦٩ ـ ٧٤ ـ ٨٩ ـ ٩٣ ـ ٩٧ ـ ١٠٠ ـ
١١٢ ـ ١١٥ ـ ١١٦ ـ ١١٨ ٠ ٩
نجع حمادى : ٧١ ـ ٨١

(هـ)

الهند : ٤٤
هو : ٧١ ـ ٨١ ـ ٩٤

(و)

الواحات : ٩٩
الوجه البحرى : ٦١ ـ ٦٤ ـ ٧٢ ـ ٨١ ـ ٩٠ ـ ٩٤ ـ ١٠٢
الوجه القبلى : ٧٧ ٠
وراء النهر : ٤٤ ٠

فهرس الموضوعات

تقديم : بقلم الأستاذ الدكتور سعيد عبر الفتاح عاشور ٣
المقدمة ٥
الفصل الأول : أسباب الأزمات الاقتصادية ٩
الفصل الثانى : الازمات الاقتصـــادية والأوبئة منذ الفتح الاســلامى وحتى بداية العصر المملوكى ٢١
الفصل الثالث : الأزمات الاقتصادية والأوبئة فى العصر المملوكى ٠ ٣١
توقف مــاء النيـــل عن الزيادة زمن بيبرس الجاشنكير (٣٩) الناصر محمد والأزمات الاقتصادية (٤٠) انخفاض النيــل زمن الكامل شــعبان (٤٢) الوباء العـــام عام ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩م (٤٣) الوباء والغلاء أواخر دولة المماليك البحرية (٤٨)
الاضـــطرابات الاقتصـــادية زمن الشلطان برقوق(٥١) تدهور الاحوال الاقتصادية وانتشــار الأوبئة فى عهد الناصر فرج(٦٢)الأزمات الاقتصادية والأوبئــة زمن السلطان المؤيد شــيخ (٧٥) الأزمات الاقتصادية والطاعون زمن الاشرف برسباى (٩٠) الأوبئة والمجـــاعات زمن أبو سعيد جقمق (١٠١) اضطراب الأحوال الاقتصادية أواخر عصر سلاطين المماليك (١٠٦)
المصدار والفهارس : ١٢٢

تصويبات

صفحة	سطر	حاشية	خطأ	صواب
٣	١٦		يقوم	يقدم
٥	١٣		والآحر	والآخر
٧	٤		والنبا	النبا
١٢	٥		عنه	منه
١٨	٤		لكثرة العمران	تحذف
١٩	١٧		المملوك	المماليك
١٩		٣	منها	فيها
٢٠	١		سرياقون	سرياقوس
٢٢		٣	ان بـ	ابن
٢٦		١	المنتصر	المستنصر
٢٧	٧		الوزنر	الوزير
٣٠	٥		وإزداد	وازدياد
٣٠	٦		واضطر	اضطر
٣٢		١	عبد الحكيم	عبد الحكم
٣٢	٣			يحذف هذا السطر
٣٠	٤		أولاك	الاول
٣٥	١٨		روى	رووا
٤٣		٢	his	history
٤٣	١٦		القسطنطية	القسطنطينية
٤٤	٥		فى	وفى
٤٦	٨		ولعدم	لعدم
٤٧		١	الموردى	الوردى

تابع تصويبات

صفحة	سطر	حاشية	خطأ	صواب
٥٣	١٤			بحذف
٥٥	٨		له له	له
٥٧	١٩		المخانس	المخانسى
٦٠	١٤		القاهرد	القاهرة
٦٢	٣		صورد	صوره
٦٢	٤		المصرى السلطان	المصرى زمن السلطان
٦٤	١٩		العيتابى	العينتابى